سمير ساسي

خيوط الظلام

رواية



دار الحوار

● خيوط الظلام

● سمير ساسي

● الطبعة الأولى 7 / 2010

● الناشـر: دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية - اللاذقية - ص. ب: 1018

هاتف وفاكس: 422339 41 963

البريد الإلكتروني: daralhiwar@gmail.com

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

❁ ❁

❁ ❁

سمير ساسي

خيوط الظلام

رواية

دار الحوار

تقديم

كيف يقرأ مؤرخ الأدب؟ وكيف يقرأ أديب التاريخ؟

عندما توجه إلي الصديق سمير ساسي بطلب إبداء رأيي في عمله ثم تقديمه أصبت ببعض الحرج، ذلك أنني وإن كنت أطالع الأعمال الأدبية من حين لآخر فإن ميلي إلى النظر في هذا النوع من النصوص بعين المؤرخ كان يجعلني باستمرار قاصراً عن ملاحظة الكثير من الجوانب الإبداعية في جهد الأديب، فحتى عندما يكون بصدد التعامل مع نص أدبي يظل المؤرخ مهووساً بمنهجه العلمي، باحثاً عن علامات الطريق التي تعود المرور منها، وساعياً إلى فهم عوامل التحول ودور القوى ومكانة الزعامات. هنا يجب على المؤرخ أن يعترف أن عليه التخفيف من غلوائه العلمي والنظر إلى "التاريخ" من زاوية أخرى، مختلفة حتماً عما تعود عليه من زوايا، ولكن طريفة وذات خصوصية. على المؤرخ أن يتذوق النص الأدبي وأن يتعلم منه وأن لا يعتبره أقل قيمة من النص العلمي، غير أن ذلك ليس بالتمرين السهل دائماً.

في هذا النص يقرأ الكاتب التاريخ بطريقته الخاصة، مفسحاً المجال لذاتيته، وراسماً لوحة أدبية تستوقف المؤرخ وتوقظ لديه جملة من الأفكار التي يفترض أن تستوقفه حتى كمؤرخ ينظر إلى الواقع بكثير من البرود والموضوعية العلمية. لعل الأديب أصدق من المؤرخ إذ لا ينكر ذاتيته ويتبنى باعتزاز عدم موضوعيته. لا يمكن حتماً مطالبة النص الأدبي بأن

يكون "موضوعيا" فهو نص إبداعي يتوق إلى الجمالية أولاً وأخيراً. في النص الأدبي يكون المؤلف متحررا من عقد المواقف ومن ضرورة التبرير وهو أمر غير متاح للمؤرخ مطلقاً عندما يكتب أو يتكلم.

من السهل على المؤرخ المختص في الفترة المعاصرة أن يحدد بشكل تقريبي على الأقل "الإطار التاريخي" لأحداث "خيوط الظلام"، وهي الفترة التي تلت حصول البلاد التونسية على استقلالها الداخلي ثم التام، أي فترة تركيز الدولة الوطنية واستعادة السيادة. غير أن المؤلف يعود بالقارئ إلى بعض الأزمنة التأسيسية الأخرى السابقة عن ذلك الإطار، إلى إرهاصات نشأة العمل الوطني، ثم يتجاوز الخمسينات إلى الستينات، كل ذلك بكثير من السلاسة التي تدل على تحكم واضح في المفاصل التاريخية الرئيسة وحتى الجزئية للفترة المعاصرة. ومثلما يتجول المؤلف بين الفترات والأزمنة محاولاً استقراء علاقاتها ببعضها البعض، فإنه ينتقل من فضاء إلى آخر، من الريف الفقير وأهله المسحوقين، إلى المدينة الصاعدة من رحم القهر الاستعماري.. من الفلاحين البسطاء إلى موظفي المكاتب من ذوي السطوة.. من آمال التحرر إلى واقع القهر الجديد.. ومن الفضاءات الرحبة إلى الزنازين الضيقة.

قبل سنوات عديدة كتبت هالة الباجي كتابها العميق "خيبة أمل وطنية". كان كتاباً مؤسساً لم يفتأ يثير في وعي المهتمين بتجربة الدولة الوطنية الكثير من الأفكار السوداء. تذكر "خيوط الظلام" بذات الأفكار ولكن بأسلوب مختلف، تطرح الأفكار ذاتها تقريباً ولكن في صيغة المعاناة وليس في صيغة التساؤلات الكئيبة. بين هالة الباجي وسمير ساسي يمكن للقارئ أن يتلذذ خيبة الدولة الوطنية المرة وأن يتساءل بذات المرارة: ألذلك بذلت الجموع تلك التضحيات ونسجت الأجيال تلك الأحلام؟

تبدأ خيوط الظلام بمشهد شديد المأساوية: أطفال مدرسة يجرفهم تيار الوادي الهائج أثناء عودتهم إلى بيوتهم. لم يبق من تلك الزهرات سوى زهرة واحدة، عبد الرؤوف، كان عليها أن تشهد المأساة لتحكيها، لم يكن أهل القرية يطلبون أكثر من جسر على الوادي، ولكن الدولة تأخرت

عليهم به بعد أن استغرقت في سياسة الإهمال القاتل، تحكم المأساة كل خيوط الظلام انطلاقاً من لحظة تأسيس الخيبة تلك، وكل ما عدا ذلك تفصيل للمأساة وتكرار للخيبة، بأشكال أخرى وبحرقة أخرى. ليس المؤلف محايداً هنا، ولا ينقل الأحداث ببرود المؤرخ، وهو ما يعمق الشعور بالمرارة أكثر. هنا الخيبة مباشرة، تعصف بكل صلفها بجيل كامل. في بقية الرواية، لا يفعل الشاهد سوى لعق جراحه وجراح قريته - بلاده المكلومة.

كان عبد الرؤوف الذي لن ينجح في شيء ذا قيمة بعد ذلك مداناً في عرف السيادة الجديدة. يكفي أنه قد ولد في سنة 1952، تلك السنة "الحمراء" دما وثورة، من تونس إلى أرض الكنانة. كان يوسفياً، باللقب المدني وبالإنتماء السياسي. وكان ذلك كافياً لتتهاطل عليه اللعنات. يحملنا المؤلف إلى زمن اليوسفية ليتابع، في قراءة مقبولة جداً بالنسبة لأديب، نشأة الزعامة المناقضة. تبدو العملية كمحاولة إحياء للأب المقتول، وإعادة كتابة لفصل حساس من تاريخ البلاد. يعود المؤلف إلى الثلاثينات، بل إلى ما قبل ذلك أحياناً، وكأنه يحاول أن يقول إن بورقيبة لم يكن أفضل من بن يوسف في شيء، يتتبعه من ولادته إلي الكتاب.. إلي كل التفاصيل الأخرى حتي مقتله ذات يوم من سنة 1961 في ميونخ. كم خسرت تونس بمقتل الرجل، فقد كان بإمكانها أن تؤسس لدولة جديدة بالفعل، وأن تفلت نهائياً من سطوة الاستبداد الفردي إلى النهاية. أما السؤال عن الأفضل بين الرجلين، فتلك مسألة أخرى.

كل شخصيات الرواية أو معظمها حقيقية، فهي تتزاحم على أحداث تلك الفترة في مراوحة بين آني الأحداث وبين الومضات الورائية المطولة. يعيد المؤلف كتابة التاريخ كله، من ثلاثينات القرن الماضي إلى سبعينياته، بشكل خاص به، بل إنه يصل بزعيمه إلى الفترة التي أعيد فيها رفاته إلى أرض الوطن ثلاثين عاماً بعد مقتله. من أحداث الثلاثينات إلى الخمسينات وحتى الستينات تتمظهر لنا جميع المفاصل الكبرى وحتى الصغرى لتاريخ البلاد. يبقى بورقيبة في الصورة دائماً، ولكن

كخصم للراوي وأبطال روايته. من تصفية اليوسفيين إلى أحداث المحاولة الانقلابية والمحاكمات التي تلتها، يتبدى لنا الزعيم في صورة الوحش الكاسر الذي لا يرحم معارضاً له، وهي صورة أدبية بالأساس لأن للمؤرخ رأياً آخر أكثر تنسيباً للمسألة.

يثأر المؤلف هنا لكل الذين أجبروا على الصمت زمناً طويلاً، ويحاول إعادة تشكيل وعيه بالزمن الوطني، محترزاً مما حقنتنا به الدعاية الرسمية طيلة أزيد من عقود ثلاثة. المؤلف نموذج هنا عن فشل تلك الدعاية، فها هو يناقضها وينسفها في مواقع عديدة ويضع كل شيء موضع الشك والتساؤل، لا بل يصوغ مساراً مختلفاً للأحداث يقلب كل شيء رأساً على عقب. وهو يقوم بذلك بكل حرية ويسر، فهو ليس مؤرخاً وإنما مبدع نص أدبي.

لا ينبغي على المؤرخ أن يخشى من الأدب التاريخي، بل أن يتكامل مع منتجه، لأن النص الأدبي يبقى أوسع انتشاراً من النص العلمي، لذلك فإن كل نص في الأدب التاريخي يجب أن يحتفى به. تعيد مثل هذه النصوص الناس إلى ذواتهم السحيقة وتدفعهم إلى التساؤل دفعاً: من أين جئنا وكيف وصلنا ها هنا؟ أين أحلام الآباء ودماؤهم وعرق الأرض؟ من فعل بنا كل ذلك؟ من عطل المسار؟

عسى أن يدفع النص القارئ إلى مثل هذه الأسئلة، وأن يرمي بوعيه في سبل التنسيب المقلقة، وأن يعترف لصاحبه في ذلك ببعض فض.

الدكتور عدنان المنصر

أستاذ ومؤرخ جامعي _ كلية الآداب بسوسة

الخيط الأول

أحاديث عبد الرؤوف اليوسفي

قال عبد الرؤوف: قريتنا في أقصى المدينة، على جدرانها يسيل الفقر كماء مطر قديم بللّ الحيطان ولم يجف، ريحُه تزكم أنوف الشباب فينتشرون في الشوارع كأوراق الخريف بالكاد تجتمع ورقتان...

قرية عبد الرؤوف على تخوم الجبل بجانب الطريق المؤدي إلى مدينة بيأَش، ليس بها خلق كثير، شيوخها يعملون في الحقول يخرجون إليها صباحاً علّهم يعودون ليلاً بما يجمع الورق المتناثر في شوارع القرية، يعودون وقد سبقت الريح جهدهم فما تركت لهم ما يجمعون، كل الشباب تفرق والنكبات ما زالت تتالى على القرية وعلى بيت يوسف الواقع في وسطها.

بيت يوسف في وسط القرية تسكنه عائلة وفيرة العدد جاءت كلّها من زواجه الرّابع كأنّه ينتقم من زيجاته السابقة.

يوسف فلاّح كأهل القرية وعامل في محطة القطارات كبعض أهلها، تزوج ثلاث مرات ولم ينجب ولداً ولا بنتاً، كل زيجاته انتهت بالطلاق والفراق. لم يكن يوسف يبغض زوجاته لكنه يحبّ الولد كثيراً، وكان الطلاق يغلق باباً ويفتح أملاً جديداً حتى كانت زيجته الرابعة من فاطمة.

أنجبت له فاطمة اثني عشر ولداً أكبرهم سمّاه عبد الرؤوف. كان بكر أولاده، ظل وحيداً فترة من الزمن ثم جاء إخوته بعده، ربّاه يوسف كما يُربّى الطفل الوحيد لرجل حُرِم الولد أكثر من نصف عمره، له ما أخذ وله ما يطلب. درس في المدرسة والمعهد ونجا من النكبة الثالثة.

مرّت على بيت يوسف نكبتان ونجا عبد الرؤوف من النكبة الثالثة نكبة بياش.

لم يكن يوسف يعدّ طلاقه نكبة لكنه يحزن لوقوعه ويمضي، حتى كانت النكبة الأولى هناك في أقصى الأرض، لم يحضرها فلم يكن يعرف تلك الأرض ولم يزرها لكنّه يسمع عنها ويحبها، فلمّا نكب فيها هو ومن في القرية جميعاً ومن في المدينة وخارجها بكى كما لم يبك من قبل.

بكى الجميع وتحسّروا ثم تفرّقوا يفلحون الأرض لعلّ نبتا ينبت منها يعيد إليهم ما ضاع في النكبة الكبرى أو يبعثون منه إلى هناك قليلاً يسدّ رمق الجوع ويذهب هول الحرب والاحتلال، وهم الذين

يعرفون ضيقه ومرارة الجوع وجند الفرنسيس يطؤون أراضيهم وبيوتهم بنعالهم التي لم تنزع منذ جاؤوا إلى هنا.

ما زالت فاطمة زوجة يوسف تذكر كيف كان "السّيلغان" كما تسمّيهم، يقتحمون عليهم الحوش الذي لا سور له ويرفسون الطعام ويأخذون بعض الدّجاج المنتشر في الساحة.

مرّت النّكبة الأولى وجاءت الثّانية في فلسطين ولم تمض بضع سنوات حتى كانت الثّالثة كما سمّاها عبد الرؤوف، هنا في قرية بيّاش الرّهيب.

وادي بيّاش يفصل القرية عن المدينة، لا يعبر أهل القرية إلى المدينة ليقتاتوا منها أو يعملوا بها أو يدرسون في المعهد الوحيد هناك حتى يمرّوا بهذا الوادي الذي يأتيه ماؤه من أعالي الجبال ومن خارج البلد من الجزائر.

وادي بيّاش صامت طول السّنة لا يأتيه ماؤه إلاّ قليلاً وإذا جاء فاض وانهمر وفصل القرية عن المدينة وانقطع عن أهل القرية الرّغيف والعلم...

المخبزة الوحيدة كانت في المدينة فإذا فاض الوادي انقطع الخبّازون عن الذّهاب إلى القرية بالرّغيف فليس على الوادي جسر يعبرون عليه.

المعهد الوحيد في المدينة... وحين يفيض الوادي بمائه ينقطع أبناء القرية عن التّعليم حتى يغيض الماء... بضعة أيام ويعودون.

لم يكن في القرية مخبزة ولا معهد وكان الرّغيف والتعليم متقطعان... لا يأكل الجميع ولا يتعلّم الجميع حتى كانت النّكبة التي سمّاها عبد الرؤوف الثّالثة.

نجا عبد الرؤوف من النّكبة التي سمّاها الثّالثة، لكنّها خيّمت على بيتهم الواقع في وسط القرية، وعبد الرؤوف كثيراً ممن مسّته النكبة الثالثة في القرية وفي المدينة أيضاً. أصدقاؤه وزملاء له في الدّراسة ذهبوا ولم يعودوا، أخذهم بيّاش الرّهيب بعد عامين من ضياع القدس هناك في أقصى الأرض.

ضاعت القدس وضاع في أرض بيّاش العلم بعدما وقف "كميون" الجيش ولم يستطع العبور ولم يقدر على مقاومة فيضان الوادي.

حين اشتدّ الفيضان كان "كميون" الجيش قد توسّط الوادي فلم يقدر سائقه على الرّجوع إلى الخلف حيث المدينة ولا أن يتقدّم إلى القرية وكانت النّكبة الثّالثة... لقد ضاع العلم بعدما ضاعت القدس...

منذ عشر سنوات خرجت الدولة الجديدة تحمل قنطرة ومعهداً وبعض الرّغيف إلى أهالي القرية ولم تصل بعد، كان الفيضان أسرع منها وصلت بعد الفيضان بسنوات بعدما حلّت النكبة الثالثة كما يقول عبد الرؤوف.

نكبت القرية في شبابها الذين عبروا الوادي إلى معهد المدينة حيث يدرسون ويطلبون العلم، كانوا يقطعون كلّ يوم أكثر من سبعة

كيلومترات الى المدينة، يتحيّنون سكون الوادي الرّهيب وينطلقون الى المدينة.

يومها كان الوادي ساكناً حين عبروا.

أتموا يومهم الدراسي واستعدّوا للخروج والعودة إلى القرية. كانت الأمطار قد بدأت في الهطول قبل انتهاء الدّروس، وحين يهطل المطر يفزع تلاميذ القرية الذين يدرسون بمعهد المدينة، فهم يعلمون أنّها قد تحمل الوادي إليهم وتعيق عودتهم إلى القرية. يومها صدق حدس التلاميذ وهم يراقبون هطول المطر ساعة الدّرس.

كان الهطول شديداً حتّى حمل الوادي وجاء به من أعالي الجبال ومن الجزائر، جاء به هادراً رهيباً كعادته.

لم يكن المعهد قريباً من الوادي لكن التّلاميذ سمعوا هديره وتناقلوا خبر فيضانه فتصايحوا... جاء بيّاش، بيّاش حامل...

تصايح التلاميذ وتجمّعوا قرب الحافلة يبغون الإسراع بالعودة إلى القرية قبل أن يمنعهم بيّاش عنها. لم يعرفوا بعد كيف غضب بيّاش لكنّهم عرفوه من قبل فأرادوا أن يستبقوه، لكن سائق الحافلة الوحيدة التي كانت تقلّهم إلى القرية أذهب أمانيهم بالعودة تلك الليلة واعتذر لهم ورجاهم أن يتدبّروا أمر مبيتهم في المدينة فقد سبقهم بيّاش إلى الغضب وإلى الطريق ولن يفلحوا في عبوره.

كان السائق يعرف بيّاش أكثر منهم، وكان يخشى عليهم منه، فترجّاهم بعد أن اعتذر لهم فقد كان يراهم كأبنائه، أحبّهم بعد طول رفقته لهم. وحده كان يصحبهم في رحلة العلم إلا قليلاً حين المرض

أو شدّة لا يقدر معها على السياقة، يعرفهم واحداً واحداً يناديهم بأسمائهم يلاطفهم ويترفّق بهم لكنّه الليلة عجز أن يقنعهم بالمبيت في المدينة.

أصرّوا على الرّجوع إلى القرية فتركهم معتذراً مشفقاً. عجل بعضهم كأنه يسرع إلى الموت ولم ينتظر حتى يتدبّر أمر عبور بيّاش، أما البقيّة فرجعوا إلى مدير المعهد يلحّون عليه أن يتدبّر لهم حلاً، فلمّا رأى حرصهم على الرّجوع اتّصل بثكنة الجيش وطلب منهم أن يرسلوا إليه ما ينقل عليه التلاميذ إلى القرية.

أرسلوا إليه "كميونا شيخاً "من أثر الاستعمار رآه التلاميذ ففرحوا ولم ينتبهوا إلى حاله. هزّهم فرح العودة فعجلوا إليه يتزاحمون عليه وتتّسع أحلامهم خلف العودة قليلاً... سيبيتون اللّيلة في بيوتهم ويطمئن آباؤهم وترتاح أمهاتهم وسيأكلون "البركوكش".

كان "البركوكش" أحبّ الطّعام إليهم تعدّه العائلات في ليالي الشّتاء. تذكّره التّلاميذ حين اشتدّ بهم المطر... تذكّروه ونسوا أن بيّاش حامل وأنه قد جاء وقد يحرمهم لذّة "البركوكش" هذه اللّيلة وربّما إلى الأبد لو غامروا فعبروه. لا أحد منهم ذهب به الظّن هذا المذهب وقد رأوا "كميون" الجيش قادماً إليهم يحملهم إلى القرية.

ظنّ الجميع أن "كميون" الجيش قادر على قهر بيّاش وإجهاض حمله فأسرعوا إليه حين برز إليهم من أول الشّارع الموصل إلى المحطّة أمام المعهد.

جاء "كميون" الجيش وزفر زفرة إرتعد منها التلاميذ ثم تزاحموا يريدون الصّعود وحجز أماكن فيه. تدخّل المدير والرّقيب السائق لفضّ تزاحمهم ووعدوهما بأنّ الجميع سيرجع إلى القرية.

ركب الجميع وتحرك "كميون" الجيش كشيخ مترهّل زاده حمل التّلاميذ ثقلاً وتأخّر عبد الرّؤوف عن الرّكوب. لم يزاحم التّلاميذ كأنّه كان يستشعر النّكبة تحلّ بهم.

أحسّ عبد الرّؤوف بخوف شديد لم يفصح عنه ولم يقدر، ولو فعل ما سمعه أحد من التلاميذ ولا حتى مدير المعهد. كان الجميع يرقب العودة ويمنّي النفس بأكل "البركوكش" وقد اطمأنوا إلى "كميون" الجيش، إلاّ عبد الرّؤوف فقد آثر الصمت حتى لا يضحك من وهمه التلاميذُ، فابتعد عنهم وسار في شوارع المدينة يبحث عن مأوى يبيت فيه ليلته حتى يضع بيّاش حمله ويعود إلى هدوئه.

تحرك "كميون" الجيش وابتلعه الشّارع المقابل وغاب عبد الرّؤوف في الشّارع الآخر وما زال المطر يهطل يبلّل غطاء "الكميون" وثياب عبد الرّؤوف.

لم يستطع عبد الرّؤوف النّوم ليلته رغم أنّه وجد من يؤويه من أهل المدينة، ما زال ثوبه المبلّل على جسده وقد همّ أن يرتاح قليلاً في مبيته الجديد لكنّه لم يستطع إذ فزع كما فزع الناس في المدينة وخرجوا مسرعين يتصايحون كأنّ صاعقة حلّت بدارهم... "كميون الجيش وحل في الواد... كميون الجيش وحل في الواد.. الواد هزّ كميون الجيش..."

هبّ عبد الرّؤوف مع أهل المدينة مسرعاً يكاد قلبه يخرج من مكانه فقد كان على وشك أن يركب "الكميون"، كان يجري ويرى نفسه وسط الوادي يحاصرهم بيّاش برعبه وهديره والمطر من فوقهم وهم يتصايحون. وتذكّر عبد الرؤوف زملاءه التّلاميذ وأصدقاءه فكفّ عن رؤية نفسه هناك وسألها ماذا حلّ بهم الآن.

كان يسرع وتثقل خطواته والفزع يشلّ حركته أو يكاد، وكان هو يغالبه أو يحاول حتى أدرك ضفة الوادي من جهة المدينة هناك حيث اصطفّ أهل المدينة يرقبون "كميون" الجيش الذي غرق في وحل الوادي وسط المياه الهادرة تحفر تحته لتحمله مع حملها المختلف والتلاميذ يتصايحون ويعلو صراخهم صوتُ الفيضان الرّهيب.

وفي الضّفة الأخرى تجمّع أهل القرية الذين سمعوا الخبر ففزعوا وهرعوا حفاة عراة إلاّ من بعض ما يستر عوراتهم ووقف الجميع يرقبون الفيضان ويصرخون مع التلاميذ الذين حبسهم الوادي مع "كميون" الجيش، فلا أحد الآن يقدر أن يتدخّل وينقذ التلاميذ، والدّولة الجديدة ما زالت لم تصل بعد إذ أثقلها حملها الذي حملته إلى القرية وخرجت به إليها منذ عشر سنوات... قنطرة وبعض الرّغيف، عشر سنوات والدّولة الجديدة تسير كالسلحفاة ووادي بيّاش الرّهيب يحمل كل عام ما شاء، واليوم جاء دور التلاميذ ودور "كميون" الجيش.

لم تصل الدّولة الجديدة ولم يبق أحد من أهل القرية في انتظارها فالكلّ خرج إلى الوادي يستعطفه أن يطلق التلاميذ الذين حبسهم مع "كميون" الجيش، وعبد الرّؤوف تسيل دمعته على خده كماء المطر الهاطل ليلتها...

كان صراخ التّلاميذ يعلو كلّما علا هدير الماء أو زحزح "الكميون" عن مكانه قليلاً، وحين أدركوا أنّ الوادي لن يفكّ أسرهم قفز بعضهم إلى الماء لعلّهم يصلون إلى الضّفة، لكن الوادي كان أسرع منهم. حرك "الكميون" من مكانه وضمّه هو والتلاميذ الذين ظلّوا فيه والذين قفزوا منه إلى حمله الجديد، وحلّت النكبة التي سمّاها عبد الرّؤوف بالثّالثة.

هدأ بيّاش وعاد إلى سكونه بعدما وضع حمله في مصبّه الأخير، وضع جثث التلاميذ وبقية "كميون" الجيش ثم عاد إلى هدوئه ساكناً كأن لم يفعل شيئاً، لكنّ نفوس أهل القرية لم تهدأ... حملوا جثث أبنائهم إلى المقابر وبكوا تلاميذاً ضاعوا بعدما ضاعت القدس بعامين وحين لم تصل الدّولة الجديدة بقنطرتها إلى الوادي وقد خرجت بها منذ عشر سنين.

عاد الناس إلى بيوتهم ونفوسهم مملوءة حزناً ودموعهم لا تكاد تجفّ وقد أناخت النّكبة التي سمّاها عبد الرّؤوف بالثّالثة على كلّ البيوت، وعاد التلاميذ الذين نجوا من الموت إلى الدّراسة وظلّ عبد الرّؤوف يعبر الوادي كل يوم بعدما يتحين سكونه.

تأخّر حمل الوادي هذا العام كأنّ دم التلاميذ أعقمه أو أجّل حمله، وما زالت الدّولة الجديدة تسير منذ عشر سنوات تحمل القنطرة إلى الوادي ولمّا تصل بعدُ وعبد الرّؤوف يجلس على مقعد الدّراسة ينظر إلى السبّورة فتتلاشى أمام عينيه صورة أستاذ التاريخ يشرح لهم درساً عن النّكبة الأولى...

نكبتان مضتا وما زلنا نبحث عن النّكبة الأولى... هل توقّف الزّمن عندها؟ سأل عبد الرّؤوف صور التّلاميذ الذين حملهم الوادي بعد عامين من النّكبة الثّانية وجاؤوا إليه الآن يملؤون بصورهم سبّورة القاعة التي كتب عليها درس النكبة الأولى.

لم يجبه أحد... فلا أحد غيره كان يرى الصّور تملأ السبّورة... وبهت الأستاذ لسؤاله ولم ينتبه عبد الرّؤوف لبهتة أستاذه.

بهت الأستاذ لسؤال عبد الرّؤوف، فلم يسبق أن سأله تلميذ مثل هذا السّؤال ولا حتى عبد الرّؤوف نفسه، كأنّما النّكبة الثّالثة أبدلت عبد الرؤوف شخصاً آخر غير الذي كان.

سلب السّؤال القاعة من مكانها وزادت صور التّلاميذ الذين حملهم الوادي مع "كميون" الجيش من الظّلمة والسّكون وسال دمع عبد الرّؤوف على خديه...

سأل عبد الرّؤوف سؤاله بعدما يئس من قدوم الدّولة الجديدة إلى القرية وقد ضاعت القدس وضاع العلم وحل في نفسه السّؤال...

انهمرت الاسئلة كأنها المطر الذي جاء ببيّاش وحمل معه "كميون" الجيش والتلاميذ وانفلت لسان عبد الرّؤوف بالسؤال كأنّما

أصابه إسهال لم يقدر عليه، سأل عن النكبة الأولى والثانية لكنّ أسئلته انصبّت كلها على الدّولة الجديدة التي لم تصل بعد.

سأل عن سرعة سيرها وعن الطّريق الذي سلكته إلى قريته، عن حجم القنطرة التي تحملها الى الوادي... لم يجد جواباً لكنه لم ينفك عن السّؤال.

حين كان يعبر بيّاش أيّام سكونه يقف عبد الرّؤوف حيث وقف "كميون" الجيش ولم يستطع العبور، يقف كأنّه يبحث عن شيء ضاع منه، يخفض رأسه قليلاً ويسيل دمعه غزيراً يبلّل البقعة الجافّة التي وقف عندها "كميون" الجيش ثم يقلّب بصره في أرجاء الوادي ويرفع يديه كمن يحمل ثقلاً ثم ينزلهما ببطء ويخاطب الوادي بصوت مرتفع غير آبه بالذين يمرّون أمامه من الناس، ينظرون إليه ويظنّون به ظنوناً كثيرة... هذه قنطرتك التي وعدتك بها الدّولة الجديدة، لقد خرجت ليلاً منذ عشر سنوات أو يزيد فلا تعجل عليها، ما زال أمامها بعض الوقت لتصل إليك.. عشر سنوات قليلة أمام عظم القنطرة التي تحملها إليك، ستكون قنطرة عظيمة تجهض بها كلّ حمل يأتيك ولا ترضاه.

يشتدّ بعبد الرّؤوف البكاء فينزل يديه ويمضي إلى المعهد، يجلس واجما في قاعة الدرس يخاطب صور التلاميذ الذين حملهم بيّاش ويسأل سؤالاً لا يجد له جواباً ولا يودّ سماع جوابه.

كانت صور التلاميذ صامتة حزينة تنظر إليه، تزيد من حرقته ووجعه والدّولة الجديدة لم تصل بعد والسؤال ينهمر منه بإسهال شديد لم يقدر على ردّه ولم يطق عليه صبراً...

الدّولة الجديدة منشغلة بأمورها... قال له أستاذ التاريخ

لم يهتم عبد الرّؤوف لكلام أستاذه ولا لشغل الدّولة بأمورها فقد أتعبته الأسئلة التي عصفت بآمال أبيه وإخوته والعائلة جميعاً للعام الثاني على التوالي وهم يرقبون نتيجة إمتحان الباكالوريا.

الباكالوريا على أيّامه كانت حدثاً مشهوداً نتائجها تعلن في الإذاعة وتكتب الصّحف أسماء الناجحين وينتظرها الجميع وعائلة عبد الرّؤوف أيضاً، لكن عبد الرّؤوف لم يعد يهمه غير السّؤال، مرة أخرى يصبّ سؤاله فوق جسد الدّولة التي لم تصل إلى القرية منذ عشر سنين كيف تكتب جرائدها التي تطبع بعيداً عن القرية مئات الأميال أسماء ناجحين هنا؟

كان يشهد جمع العائلة وهي ترقب إعلان النتائج في الإذاعة، تجتمع مساء قبل ذلك بقليل وتتحلّق حول مذياع اشتراه يوسف يوم أن بلغ عبد الرّؤوف الباكالوريا لعلّه يسمع اسمه يتردد على لسان مذيع لم يلتقه من قبل فيفرح وتفرح العائلة وينسى عبد الرّؤوف أثر نكبة بيّاش قليلاً.

تأكد عبد الرّؤوف من أن المذياع لن يذكر أسماء التلاميذ الذين حملهم بيّاش وحمل معهم "كميون" الجيش ويحدوه أمل ضعيف أن يذكر اسمه هو، ضعف أمله بعد أن كثرت عنده الأسئلة وقد كانت

الدّولة الجديدة لا تسمح للمذياع بذكر أسماء التّلاميذ الموتى حتى لا تثير أحزان عائلاتهم، ولا تسمح له بذكر أسماء من يكثرون السؤال، وعبد الرّؤوف كان يسأل ولا يجيب حتى كان سؤاله الذي عصف بآمال عائلته التي انتظرت حتى منتصف الليل موعد سهرة أمّ كلثوم التي يبثّها المذياع.

انتظرت العائلة ولم تسمع اسم إبنها عبد الرّؤوف فانفضت ومضى كلّ إلى فراشه وأسكت يوسف المذياع وقد كان من قبل يستمع قليلاً قبل أن يأخذه النّوم غير أنه الليلة مثقل بهمّ ابنه الذي خيّب ظنّه للمرّة الثّانية على التوالي.

حرم عبد الرّؤوف أباه يوسف مرتين متتاليتين من الاستماع إلى اسمه مذكوراً في المذياع حتى يفتخر به بين أهل القرية، وحرمه من الاستماع إلى أمّ كلثوم، حرمه من كل ذلك بسبب كثرة سؤاله واشتغاله بالصور التي تملأ سبّورة قاعة الدرس.

كانت الصور تدخل القاعة وتأخذ مكانها في السبّورة وتغمز بطرف إلى عبد الرّؤوف كأنّها تدعوه أن يشاركهم مجلساً في آخر الوادي.

نظر إليهم عبد الرّؤوف حزيناً باكياً مشدوداً إلى حيث غرق بهم "كميون" الجيش القديم الذي لم يركبه هو وفرحوا هم به وظنّوا أنه سيوصلهم إلى القرية ليأكلوا "البركوكش"، لكن وادي بيّاش كان أشدّ منهم جوعاً وأسرع من "كميون" الجيش في الوصول، وأقوى منه حين الصراع...

انفضّت العائلة والتحق كلّ منهم بفراشه وقد سبقهم أخوه الصغير الذي انتظر قليلاً وغلبه النّوم فلم يقدر أن يواصل الانتظار.

في العام الثاني نظر الصغير إلى أخيه عبد الرّؤوف كأنّه يعاتبه أو يستفسره. وفهم عبد الرّؤوف نظرة أخيه الصغير وهمّ أن ينصرف عنه لكنّ نظرات الصغير ظلت تلاحقه وتحاصره كصور التلاميذ الذين حملهم بيّاش مع "كميون" الجيش وخلف له النّكبة الثالثة.

جذب عبد الرّؤوف الصّغير إليه وقد شعر أن هذا الصّغير يحمل في نفسه ما لم يحمله إخوته الآخرون. جذبه إليه وقد عزم في نفسه أن يجيبه عن سؤاله، وكان عبد الرّؤوف وقتئذ قد التحق بعمله الجديد الذي بحث عنه ليعين به والده بعد أن فشل في اجتياز امتحان الباكالوريا مرتين وخيّب أمل أبيه في الإلتحاق بالجامعة بسبب كثرة سؤاله كما يقول.

لقد أثقلت أسئلته الدّولة الجديدة فرأت أن تحرمه من الباكالوريا حتى لا تزيد من أسئلته... قال عبد الرّؤوف وقد بدأ يحدّث الصغير عن أمر فشله ويريحه من حيرته مثلما ارتاح هو الآن من عبور الوادي كلّ يوم إلى معهد المدينة بعد أن التحق بالعمل في سكّة الحديد، لكنّ صور التلاميذ الذين حملهم الوادي ما زالت تلاحقه وتواعده وما زال يذكرها وتزيد من أسئلته...

انقطع عبد الرّؤوف عن الذّهاب إلى المعهد وعبور الوادي بعد أن وصلت الدّولة الجديدة بالقنطرة، وصلت بعد أن تقادم بها العهد واهتدت إلى طريق الوادي وجاءت تحمل إلى بيّاش الرّهيب القنطرة

التي خرجوا يحملونها إليه منذ زمن بعيد، وصلت بعد أن جف الوادي وصار عقيما لا يحمل شيئاً.

لقد وصلت الدّولة الجديدة بعدما فرغت من مشاغلها وحسمت أمورها... قال أستاذ التّاريخ.

الآن أدرك عبد الرّؤوف كلام أستاذه بعد أن أراحته الدّولة من عبور الوادي ولم تذكر اسمه في المذياع ولا أسماء التلاميذ الذين حملهم الوادي مع "كميون" الجيش، لكنّها لم ترح أخاه الصّغير حين لم يسمع اسم عبد الرّؤوف في المذياع وحاصره بعينيه الصغيرتين يحاول أن يفهم لماذا يحجم المذياع عن ذكر اسم عبد الرّؤوف مرتين متتاليتين وهو الذي اشتراه أباه ليسمع منه اسم ابنه، لكن الدّولة الجديدة شطبت اسم عبد الرّؤوف من قائمة الذين يذكرهم المذياع مرة في كل عام، ضمت اسمه إلى أسماء التلاميذ الذين حملهم بيّاش مع "كميون" الجيش ومنعت ذكرهم في المذياع حتى لا تثير ألماً جديداً في نفوس أهل القرية الذين يفرحون الآن بوصول القنطرة إليهم بعد أن جف نبع الوادي...

لكن عبد الرّؤوف قال كلاماً آخر لأخيه الصّغير يوم حاصره بعينيه الصغيرتين يسأله عن سرّ فشله في امتحان الباكالوريا، قال:

أنا يوسفيّ ولدت سنة اثنتين وخمسين...

لم يفهم الصّغير قول أخيه وظنّه ينتسب فسأله:

وماذا في ذلك؟ أنا أيضاً يوسفيّ ولدت سنة سبع وستين...

لم يجد عبد الرّؤوف ما يجيب به أخاه وهزّ رأسه ومرّر يديه على شعره وقال له: يوماً ما ستدرك ما أقول...

ظنّ الصّغير أن عبد الرّؤوف فشل في امتحان الباكالوريا لأنّه ابن يوسف، هكذا فهم فانتسب مثله ولم يغادره السؤال: هل كان اسم أبيه تهمة فيفشل عبد الرؤوف بسببه في الباكالوريا؟ وما شأن تاريخ ميلاده؟

لم يدرك الصغير جواباً لأسئلته ومضى يستعرض حياة أبيه لعلّه يجد ما يشفي توقه لمعرفة الجواب...

لم يكن في حياة أبيه ما يثير شكّه. كان فلاّحاً بسيطاً أرسل ابنه عبد الرؤوف إلى معهد المدينة ليتعلم، واشترى مذياعاً ليسمع اسمه عند نهاية العام الدراسي في امتحان الباكالوريا، وبكى حين حلت النكبة الأولى والثانية، وحزن حين النكبة الثالثة، وصفق حين خرج الفرنسيس من بلده لكنه لم يمنع ابنه عبد الرؤوف من السّؤال.

راح الصّغير يبحث عن سبب آخر يفهم به قول أخيه، وطالت رحلته كسفر الدّولة الجديدة حين كانت تحمل القنطرة إلى بيّاش الرّهيب ولم تصل إلا حين جف الوادي وسكن وأصبح عقيماً لا يحمل.

لم يدرك الصغير معنى كلام أخيه عبد الرؤوف إلا حين اهتمت به الدّولة الجديدة وتخلّت عن أخيه وحين انتقل إلى الجامعة وورث السؤال عن عبد الرّؤوف وملك عليه رأسه. يومها صبّت عليه الدولة من فيضها ما سماه نكبة أخرى كشأن أخيه عبد الرّؤوف من قبل.

ورث الصّغير عن أخيه السؤال وجمعت بينهما الدّولة والنكبة، لكلٍّ نكبته لكن الدّولة واحدة. وهو الآن يجلس إلى عبد الرّؤوف قرب سكّة الحديد في ساعة فراغ من العمل يحدثه فيما مضى من قوله.

سبق عبد الرّؤوف أخاه إلى السؤال ووصلت إليه الدّولة قبل أن تصل القنطرة وادي بيّاش الرّهيب ولم ينفكّ عبد الرّؤوف عنها رغم النكبة التي حلّت به. ظلّ يسأل حتى بعدما منعت الدّولة المذياع من ذكر اسمه في نهاية العام وخيّب آمال عائلته... التحق بسكّة الحديد وصار على رأس نقابتها يسأل كثيراً وتجيبه الدّولة قليلاً. تبعث إليه رسائل سريعة مضمونة الوصول تذكّره صور التلاميذ الذين ذهب بهم الوادي مع "كميون" الجيش الهرم قبل أن تصل الدولة الجديدة بالقنطرة.

تحضر أمامه الرسائل والصّور ويخف السؤال قليلاً ويتقدّم العمر سريعا ويلتقي أخاه الصغير الذي شاركه النكبة وورث عنه السؤال، التقاه قرب سكّة الحديد حيث يعمل.

كانا أخوين صغير وكبير بينهما أمر وسمع وكثير من العطف ينبعث من نفس عبد الرّؤوف الحزين بعد النّكبة الثالثة وبين النكبتين. وكان الصغير يسرق من عبد الرّؤوف الحزن ويقرأ النكبات التي مضت ويمضي به العمر وتسلّلت إليه الدّولة الجديدة تسأله أحياناً عن عبد الرؤوف وعن أشياء أخرى...

لم يجب الصغير الدولة الجديدة ومضى بدوره يسألها فانزعجت وحاولت أن تمنع المذياع من ذكر اسمه مثلما فعلت بأخيه عبد

الرؤوف، لكن اسمه تسلّل ليلاً إلى المذياع واجتاز حواجز الدّولة إلى الجامعة وعرف كثيراً عن أخيه عبد الرّؤوف، وصارا كخطي السكّة لا يلتقيان إلا عند مفترق الأخوّة التي تجمع بينهما حتى حلّت النّكبة الرّابعة به وصارا يشتركان في السؤال والنكبة وتجمع بينهما الدّولة جمعاً غريباً...

واليوم يجلسان بازاء النكبة وخفياً عن سؤال الدولة يتحدثان...

تحدثا طويلاً عن الرجل الذي شغل الدّولة الجديدة فأخّرت وصولها إلى بيّاش الرّهيب بالقنطرة حتى كانت النكبة التي سمّاها عبد الرؤوف بالثّالثة. اهتمّت به الدّولة وأهملت القنطرة ولم تبعث بها الى الوادي، شغلها حتى أخرجته ومات غريباً بعيداً...

حين ذكر عبد الرّؤوف موت الرّجل الذي شغل الدّولة فاهملت القنطرة تذكّر الصغير ما قاله يوما أستاذ التّاريخ وهو يحدّثهم في القسم عن أشياء لا يسمح بقولها للتلاميذ لكنّه قالها وتذكّرها الصّغير حين تحدّث إلى عبد الرّؤوف.

قال أستاذ التّاريخ:

في 12 أوت1961 وقع اغتيال الزّعيم صالح بن يوسف في مدينة فرنكفورت في ظروف غامضة لم تنكشف أسرارها.

لم يسمع الصّغير من قبل عن مدينة فرنكفورت لكنّه تخيّلها مكاناً بعيداً جداً عن مغراوة أين ولد الرجل الذي شغل الدّولة فأهملت القنطرة ولم تأت بها إلى بيّاش الرّهيب حتى كان حمله وأورث عبد الرّؤوف النكبة والسؤال.

مغراوة بعيدة عن بيّاش لكنها أبعد عن فرنكفورت التي قتل فيها صالح.

ولد في مغراوة وقتل في فرنكفورت وشغل الدولة فأهملت بيّاش ولم تبعث إليه بالقنطرة... قال الصّغير في نفسه حين استمع إلى كلام أستاذه ورحل بعيداً يبحث عن مجمع هذه المدن كلّها.

كانت مغراوة وسط البحر في جزيرة الأحلام على مرتفع يطلّ على سهول الجزيرة وبساتينها الجميلة. وكان في مدينة عبد الرّؤوف بيّاش الوادي الرّهيب ولم يكن في فرنكفورت لا بحر ولا بيّاش فلماذا ذهب صالح إلى هناك بعد أن شغل الدّولة الجديدة ليقتل غريباً بعيداً وحيداً؟... سأل الصغير.

لم تكن مغراوة تسع أحلامه، قال عبد الرّؤوف. كان يتأمّل ضوء المنارة الواصل إليها من الجزيرة ويرحل معه إلى هناك، إلى أقصى البلاد، كأن المنارة كانت تضيء طريقه إلى هناك والغروب يفتح في نفسه لذّة البحث والاكتشاف.

كان عبد الرّؤوف يتحدّث إلى أخيه الصغير عن ابن يوسف بحماس كبير مردّداً: هذا هو ابن يوسف الذي تنسب إليه اليوسفية، تعلّم القرآن في قريته مغراوة بجامع "حاضر باش" لكنّه لم يكتف فرحل إلى العاصمة صحبة أخيه البشير.

جاء إلى العاصمة صغيراً، تعلّم الكتابة والقراءة ودخل مدرسة "التريبونال"، وبعدها التحق بمعهد "كارنو"، لكنّه لم يشبع رغبته في علم ما يودّ علمه.

استغاث بأبيه فأرسله إلى الشيخ مناشو الذي حاوره ولقنه وعلّمه كثيراً.

لكن الصّغير لم يفهم كيف انشغل أخوه عبد الرّؤوف بابن يوسف الذي تنسب إليه اليوسفية وقد كان صغيراً حين قتلت الدولة الجديدة هذا الرجل.

لم يكن الأمر سرّاً لكنّ الصّغير لم يفهم بعد وطفق يفسر لنفسه ما شاء. يستدعي أفكاراً ويرفض أخرى... لعلّ بعض دمه تناثر وتطاير في الهواء حتى لصق بثياب المذيع في إذاعة صوت العرب التي كان عبد الرّؤوف يستمع إليها كل ليلة وهي تبثّ خطابات رجل الدّولة الجديد في مصر، فشمّ رائحة الدّم وشغف به ولم يشهد مجلسه من قبل. لكنّ رجل الدّولة الجديدة في مصر ظلّ يخطب حتى بعد أن قتل ابن يوسف كأنه لم يحزن على صديقه الذي اغتيل في أرض غير أرضه...

أرضه التي أحبّها منذ كان صغيراً وحدّثه عنها أبوه كثيراً.

كان والده يحكي وصالح يرحل بفكره بعيداً إلى الماضي التّليد يبحث عن ضوء كضوء المنارة يضيء عتمة الليل التي غشيت البلاد.

حين يعود من رحلته إلى الماضي يجتمع إلى أصدقائه وأترابه في بيت والده ويتحدّثون، يطول حديثهم ويعرضون لكل شيء ويتابعون ما يحصل فوق أرضهم...

طالت النقاشات بينهم حتى جاء الرّهبان إلى أرضهم، دعتهم الكنيسة إلى قرطاج فجاؤوا مسرعين يدوسون كل شيء.

ضاقت بهم قرطاج فوزّعتهم الكنيسة في أرجاء المدينة يبيتون في مساكنها ثم يصبحون حاملين صلبانهم يجوبون شوارعها العتيقة القديمة والناس يتفرّجون، لا يملكون فعلاً ولا يقدرون، يأخذهم الألم حتى يكاد يذهب بهم ولا يستطيعون شيئاً.

وكان في المدينة بيوت في نهج القنطرة آوى اليها الرّهبان.

نهج القنطرة في الحلفاوين حيث أقامت عائلة يوسف ابنه صالح وأخوه بشير والعائلة وهناك أيضاً أقام ناس من الجزائر فرّوا من الفرنسيس أو جاؤوا بحثاً عن العمل. وهناك في زنقة الرياض أقام الرّهبان الذين ضاقت بهم قرطاج وأصبحوا يجرّون صلبانهم على مرأى من أهل الحلفاوين الذين تململوا وانزعجوا ولم يطيقوا صبراً...

أخذتهم الغيرة والحماسة فانتفضوا وهموا أن يفعلوا شيئاً غير أنهم آثروا التريث حتى ينظروا ماذا يفعل الحزب فيما يرون، لكنّ فرحات لم يعطهم غير الوعد، ولم يرضهم وعده فخرجوا إلى الشارع متظاهرين وانتهى بهم الشّارع إلى السّجن.

لم يكن الشارع يبغض صالح حتى ينتهي به إلى السّجن لكن الشّارع كان مثقلاً في آخره بجندرمة الفرنسيس الذين يرقبون الناس جيئة وذهاباً كأنّ الشارع ملك لهم. جاؤوا من وراء البحار يمنّون به على أهل الحلفاوين وتونس وساءهم أن يخرج صالح ومن معه إليه يسبّ ظلمهم ويرفض قهرهم... لم يتعودوا أن يخرج الناس عليهم أو يرفضوا لهم أمراً، فجعلوا خاتمة الشارع سجناً...

لم يطل السجن طويلاً بصالح ومن معه لكنّ حماستهم لم تنطفئ ونار الغيرة زادت في نفوسهم وقد ذهبت عنهم صدمة السّجن الأولى ولم يعد يهمّهم أين يقع الباقي...

هذا هو ابن يوسف الذي تنسب إليه اليوسفية.. ردّد عبد الرؤوف ذلك كعادته وهو يحدث أخاه الصغير عن الزّعيم صالح الذي انتسب إليه وانشغلت به الدّولة الجديدة فلم تأت بالقنطرة إلى بياّش الرّهيب وحلّت النكبة بالقريةّ والمدينة وبعبد الرّؤوف وذهب التلاميذ و "كميون" الجيش إلى حيث ذهب حمل الوادي.. وصار الوادي بعدها عقيماً لا يحمل وظلّ عبد الرؤوف حزيناً يكتم دمعه ويحدّث أخاه ويرأس نقابة سكّة الحديد بعدما أحجم مذياع الدّولة الجديدة عن ذكر اسمه في الباكالوريا.

ظلّ عبد الرّؤوف يحاول مع الباكالوريا والدّولة الجديدة تعبث باسمه تذكر بعضه أحياناً وتهمله أحياناً كثيرة حتى برم بالدّراسة وانضم إلى سكّة الحديد، لكنّ ابن يوسف لم يعجز أمام الباكالوريا، نال الشّهادة من معهد "كارنو" وسافر إلى فرنسا ولم ينس أرضه... عاد إليها حين دعته بعدما أخذ جند الفرنسيس جماعة بورقيبة الأوائل الذين كان يحضر اجتماعاتهم ويشاركهم رأيهم.

رفض من قبل أن ينضمّ إليهم وقد راوده "صفر" عن ذلك ورغبه فيه وطمع فيه بورقيبة لكنه أصرّ على موقفه حتى دعته تونس حين أخذ الفرنسيس جماعة بورقيبة.

استجاب لدعوتها وانضمّ إلى الجماعة، سدّ الثغرة وأطلق أشواق نفسه...

صبّ أشواق نفسه في المكان.. المكان بلا قرار يملؤه الفراغ ويحاصره الفقر وسلاح الفرنسيس وموتى المناجم في "المتلوي" وجرحى "المتلين" و"الجريصة" الذين طالبوا بتحسين ظروف عملهم ومعيشتهم.

كان الناس يموتون ويجرحون ويطردون وكان بورقيبة في فرنسا يحاول مع "قينو" صاحب الوعود الفارغة، يحاول وباب وزارة الخارجية يُغلق دونه وهو يخطب ولا يستشير أحداً من رفاقه والفراغ يحاصر المكان ويملؤه بعد ثلاث سنوات من انقسام الجماعة فريقين يختصمون...

أحسّ صالح أن أشواق نفسه يحضنها الفراغ وتنزل في مكان بلا قرار فعزم أن يعيد ترتيب المكان.

الصيف على الأبواب والفريقان يختصمون والمكان يملؤه الفراغ وصالح يقضي وقتاً طويلاً بين المتردّدين والمعارضين الذين يكتمون معارضتهم وقد همّ أن يعيد إلى المكان وحدته القديمة ويرجع شخوصه كلّها حتى يألف بها ويحضن أشواق نفسه ولا تذهب إلى فراغ...

تمثّل له الشيخ عبد العزيز جامعا بين الفريقين فهمّ أن يدعوه لكنّ المكان ما زال منشغلاً بالفراغ مملوء بمعارضين يعارضون ويكتمون ولا يتجرؤون ومتردّدين يخشون المعارضين ويكتمون رغبتهم في عودة الشّيخ...

تحمّس صالح لعودة الشّيخ وسارع الماطري إلى قبولها ولم يعترض "صفر" و"قيقة" وكتم بورقيبة معارضته لها فسافر صالح إلى مرسيليا ليعود بالشّيخ ويركبا البحر معاً إلى تونس.

عاد صالح والشّيخ عبد العزيز فامتلأ المكان قليلاً لكنّ الفراغ عاد إليه سريعاً بعدما انفضّ الجماعة عن الشّيخ وتركوه وحيداً ليس معه إلاّ رفاقه القدامى الذين لم يحضروا لاستقباله حين عاد مع صالح غضباً منه، عادوا إليه الآن وقد انفضّ عنه الجماعة وتركوه وحيداً وازداد الفراغ فمضى صالح يملؤه بأشياء أخرى...

حاول صالح والحزب الجديد ملء الفراغ واحتاجوا إلى سند يشدّ ظهورهم فلجؤوا إلى العمّال ينظّمون صفوفهم ودعوا "القناوي" ليكون على رأس النّقابة مثلما هو شأن عبد الرّؤوف الآن بعد أن امتنع المذياع عن ذكر اسمه والتحق بنقابة سكّة الحديد حتى صار على رأسها. لكنّ "القناوي" لم ير رأي الحزب الجديد ولا رأي صالح وآثر أن ينأى بالعمّال عنهم جميعاً فلم يعجبهم ما فعله بهم "القناوي" وتحاموه جميعاً وأخرجوه من النقابة وحلّ محله الهادي لعلّهم يظفرون بمن يشدّ أزرهم في مواجهة الفرنسيس، لكنّ نقابة العمال لم تعمّر طويلاً واندثرت فعاد الجماعة إلى الشوارع يحدّثون النّاس حتى حضنتهم سجون الفرنسيس وامتلأت بهم بعد أن رفضوا أن يُطرد علي بلهوان من المعهد الصادقي...

كان علي أستاذا في المعهد الصادقي يدرّس اللّغة العربية ويزعج الفرنسيس بدروسه حين يمرّ من اللّغة إلى السّياسة فلمّا برموا به

أطردوه ونزل النّاس إلى الشّوارع رافضين محتجّين وكان سلاح الفرنسيس يحضن كثيراً منهم ويرحل بهم إلى الموت والجرح.

غاب صالح عن مشاركة النّاس رفضهم إذ سبقهم إلى السّجن حين كان في مدينة الكاف يحرّض أهلها على رفض الفرنسيس لكنّه شارك النّاس هناك في العاصمة آلامهم والرّصاص يقتل بعضهم ويجرح آخرين. يومها لم يحضر من جماعة الحزب غير الدكتور الماطري ليشارك النّاس رفضهم، فصالح كان في السّجن وبورقيبة على فراش المرض... قال أستاذ التاريخ وصمت قليلاً...

لكنّ الصّغير لم يقنع بما قاله أستاذ التّاريخ ورسالة بورقيبة إلى محاميه "دومينيك" بين يديه يقرؤها ويتأمّلها ويرى أنّه يومها تمارض ولم يمرض.

لم يقرأ عبد الرّؤوف رسالة بورقيبة إلى محاميه من قبل فقد كانت الدولة الجديدة تحدّد دروس التّاريخ حين كان تلميذاً ومنعت كلّ الرّسائل. لكنّ الصغير بعده عثر عليها وقرأها ولم يقنعه قول الأستاذ كما لم يقتنع الفرنسيس يومها بكلام بورقيبة في رسالته إلى محاميه واستضافوه في سجونهم وكان آخر المدعوّين إلى السّجن من الجماعة..

بعد وصوله إلى السّجن بثلاثة أشهر دعاه حاكم التحقيق وسأله عن رأيه في ما قاله "فيانو". لم يتردّد بورقيبة في الإجابة قائلاً:

نحن لا نناهض مساهمة فرنسا مساهمة مباشرة في إدارة البلاد وقد صفقنا لتصريحات "فيانو".

لكنّ الضيافة لم تنته مثلما توقع، وواصل الفرنسيس إكرامه داخل السّجن ينقلونه من مكان إلى آخر وينعمون على صديقه صالح بالضرب المبرح والعزل، غير أن ذلك لم يحدث شقاقاً بين الرجلين رجاه الفرنسيس طويلاً وواصلوا صنعه بعد خروج بورقيبة من السجن ورجوعه إلى تونس خلسة.

تركوه يختلس السفر وهم يعلمون لعلّ ذلك يوغر صدر صالح عليه فيتّهمه في وطنيته، لكن صالح كان أول المستقبلين له في مطار العوينة وأذهب كيد الفرنسيس.

أذهب صالح كيد الفرنسيس لكنّه لم يذهب سؤال الصغير وهو يبحث في كلام أخيه عبد الرّؤوف عن سرّ فشله في الباكالوريا.

عاد الصغير يبحث في ذاكرته عن شيء يفسّر قول عبد الرّؤوف أنا يوسفي ولدت سنة اثنتين وخمسين، فتّش فحضرته صورة أبيه وبعض تاريخه... هو الذي تزوج ثلاث مرات ولم ينجب جاء في المرة الرابعة بعائلة غريبة كأنّه كان يتخيّر وقت ولادتهم، كبيرهم عبد الرّؤوف جاء في صيف اثنتين وخمسين يوم وصول الجيش إلى الدّولة في مصر، وآخر جاء سنة سبع وستين بعد النّكبة الثانية وضياع القدس، وثالث جاء عام الحريق في المسجد الأقصى، ويوسف نفسه ولد سنة سبعة عشر حين قامت ثورة في بلاد الرّوس البعيدة، وأمّهم فاطمة جاءت سنة أربع وثلاثين حين بدأت مشاغل الدّولة الجديدة قبل أن تصير دولة. ومن يومها تسرّب شيء ما من مشاغل الدّولة في حليبها إلى عبد الرّؤوف وإخوته حتى أكثروا من السّؤال وحلت بهم

نكبتان، نكبة بيّاش حلّت بعبد الرّؤوف وكانت نكبة الصّغير أشدّ وأنكى لكنّه سأل أخاه عن قوله...

مازال الصّغير يفسّر ما ينقله عبد الرّؤوف عن أستاذ التاريخ وقد حضر معهم في محطة القطارات الواقعة على بعد كيلومترين من وادي بيّاش الرّهيب حيث حلّت النّكبة الثّالثة، وكثرت أسئلة عبد الرّؤوف حتّى انتهى به الأمر عاملاً بسكّة الحديد بعدما راوده حلم الذهاب إلى الجامعة طويلاً وغشيه أمل أن يُذكر اسمه في المذياع الذي اشتراه أبوه خصّيصا لهذا الغرض، لكن الدّولة الجديدة آثرت أن تذكر اسمه مع التلاميذ الذين حملهم بيّاش مع "كميون" الجيش الهرم.

بيّاش الذي انتظر الدّولة الجديدة طويلاً حتى تأتيه بالقنطرة لكنّها أجّلت سفرها إليه لتنهي أمرها مع رجلها الذي شغلها وشغلته واختلف معها حتى فرّ إلى ليبيا واهتمّت هي بأمور أخرى بعد فراره.

قال أستاذ التاريخ:

مازال صالح يشغل الدولة الجديدة حتّى بعد فراره وظلّت تلاحقه حتى اغتالته.

سأل عبد الرّؤوف أستاذه:

لكنّها اغتالته سنة إحدى وستين وفرغت من أمره فلماذا لم تصل القنطرة إلى بيّاش الذي حمل التّلاميذ بعد ثماني سنوات؟

ضحك الصّغير فجأة فلم يكن يتوقّع من عبد الرّؤوف هذا السّؤال وهو الذي ينتسب إلى اليوسفية وقد انتظر أن يسأله عن أشياء تهمّ زعيمه وسبب موته وأسرارها التي لم تُكشف بعدُ، لكنّه سأله عن

سبب تأخّر قنطرة بيّاش كأنّ النّكبة الثالثة أذهبت منطق السؤال عنده.

أدرك الصّغير أثر النّكبة في نفس أخيه عبد الرّؤوف فطفق يبحث عن شيء يهوّن به عليه حتّى لا يضيع منه منطق السّؤال فتنفرد به الدّولة الجديدة، فلا بدّ من تعدّد السّؤال حتى لا تستطيع الدّولة أن تحدّد الجواب وتستبدّ به.

قال الصّغير: أظنّني عرفت سرّ الطّائرات التي لم تقلع من مواقعها في حرب حزيران حتى انقضّت عليها طائرات العدو، ليس صحيحاً أن الطيارين أخذهم غناء أم كلثوم عن هجوم العدوّ، لكنّ الطّائرات فرغن من الوقود الذي سال حزناً على موت صالح بن يوسف ولم ينتبه أحد إلى بكاء الطائرات حتى نفد وقودها بعد ستّ سنوات من السّيلان على أرض المطار. فصالح كان صديقاً مع عبد الناصر و"نهرو" و"سوكارنو"، وفرنسا كانت تسمّيه عميلاً لعبد الناصر وتخشى انتصاره حتى لا يكون هناك عبد الناصر آخر في تونس.

شجّع صمت عبد الرّؤوف الصغير على مواصلة الحديث فقال:

فقدت الطائرات القومية زعيماً قومياً باغتيال صالح فأسالت وقودها ستّ سنوات متتاليات حزناً حتى انقضّ عليها العدوّ بعد ولادتي بثلاثة أشهر على الأرض التي نشأ بها هذا الزعيم القومي وانشغل أهله ورفاقه في الدّولة الجديدة بمحو آثار دمه المبعثر على أرض ألمانيا حرصاً على العلاقة الناشئة بينهما حتى لا يلطخها الدّم المهدور.

لم يكد الصّغير يتمّ حديثه حتى غلى الدّم في عروق عبد الرّؤوف وانتفض كأنّ به مسّ من الكهرباء التي لم تصل بعد إلى بيوتهم وقريتهم يومها، وتذكّر أنه يوسفيّ وأنّ عليه أن يدافع عن زعيمه من ظنون أستاذ التّاريخ وسخرية أخيه فالتفت إليهم صائحاً كأنّه يخطب في جموع غفيرة كخطب زعيمه التي كان يلهب بها حماس الجماهير.

صاح عبد الرّؤوف في وجه أخيه يحثّه أن يكفّ عن السّخرية فلا دخل للزّعيم في هزيمة حزيران، ولا شأن له بتأخّر وصول القنطرة إلى بيّاش الرّهيب، ولم يطلب من أحد أن يحزن عليه بعد موته.

كان عبد الرّؤوف يصيح في وجه أخيه والدّمع يسيل على خدّيه وصورة الموت العجيب الغريب لزعيمه تتجسّد أمامه، يرسمها في كلمات أستاذ التّاريخ الذي كان يحدّثهم عنه كأنّه ناقل خبر لا دخل له فيه.

لم يُرض أستاذ التاريخ غرور عبد الرّؤوف الذي يعتقد أنّ على الجميع أن يبكي حين يذكر موت زعيمه، فخلّفه وتسلّل إلى شفتيه يأخذ منها الكلمات يفرغها ويرسمها من جديد، فقد أحزنه الموت الغريب العجيب كما أحزنه موت التلاميذ في وادي بيّاش من قبل.

تجمّعت كلمات أستاذ التاريخ في ذهن عبد الرؤوف فرسمها صوراً مختلفة لعلّه يستطيع أن يكشف صور الثّلاثة الذين جاؤوا من حيث لا يدري أحد، جاؤوا إلى ألمانيا لاغتيال الزّعيم...

واعدوه واجتمعوا به ولم تستطع زوجته صوفية أن تتبيّن ملامحهم ولا التّعرف إليهم وقد أخذ عبد الرؤوف يبحث في كلمات أستاذ التّاريخ ليعثر على هذه الملامح الغائبة المفقودة.

لم يكن عبد الرّؤوف رسّاماً ولم يعمل بالشّرطة الفنّية المختصّة فيرسم وجوه المجرمين من المجهولين لكنّ حزنه الشّديد وحنقه على الثلاثة الذين اغتالوا زعيمه رقّق شعوره ودفعه إلى البحث في كلمات أستاذ التّاريخ عن ملامح لهم. لم تكن كلمات الأستاذ وحدها كافية ليرسم بها عبد الرؤوف الوجوه الثلاثة فلجأ إلى دموع صوفية...

ليس أصدق من الدّموع لحظة خروجها وليس أصدق من دموع الحبيبة حين تفقد حبيبها.

بكت صوفية فاختزنت كلّ الصّور التي تعرفها والتي لم تتعرّف إليها كدموعه هو حين حمل بيّاش الرّهيب التّلاميذ مع "كميون" الجيش الهرم. سالت دموعه غزيرة صادقة فاختزنت صوراً يدعوها كلّما حنّ إليها في قاعة الدرس، في خلوته، وحين يعبر بيّاش فوق القنطرة التي جيء بها بعد النكبة الثالثة بسنوات عديدة، وتحت القنطرة حين يحتاج أن يبكي...

بكت صوفية بحرقة وسالت دموعها غزيرة وهي ترى زوجها صالح يصارع الموت والثّلاثة الذين قتلوه فرّوا وغادروا المانيا لكنّهم لم يغادروا دموعها التي حصرتهم فلم يستطيعوا السّباحة فيها حتى أغرقتهم واختزنت صورهم وقدّمتها إلى عبد الرّؤوف الذي أوغل في

لجج الدّمع المنهمر منها وهي تبكي زوجها صالح. فرسم صور الثّلاثة الذين قتلوه أو ظنّ أنهم قتلوه وفرّوا ولم يُعرفوا.

فرّوا ولم تتعرّف إليهم صوفية لكنّ دموعها أغرقتهم وجمّدت حركتهم حتى جاء عبد الرّؤوف بحزنه ونكبته وحبّه لصالح وشوقه إليه. جاء وقد تعلّم فنّ الرّسم بالدّموع وفطن إلى مواقع الثّلاثة في عيون صوفية وحدّد لكلّ واحد منهم إطار لوحته الخاصة به، واضطرّ إلى تعديل الاطار مرّتين أو ثلاث مرات. ظنّ أنه سيعثر في دموع صوفية على ثلاثة أشخاص يكفي لكل واحد منهم إطار صغير الحجم يحقّر فعلتهم، لكنّ الاطار لم يسعهم فقد كان خلف كل واحد منهم شخوص كثيرة مبهمة غامضة كالاشباح كادت تنزف دموع صوفية كلّها فلا يجد دمعاً للرسم فلا دمع مثل دمع الحبيب...

تدبّر عبد الرّؤوف أمره ورسم الصّور ووضعها في أطر ثلاثة متشابهة وهيّأ نفسه بعد أن حفّ شاربه وحلق لحيته ولبس بعض لباسه الجديد وقصد الإدارة الجديدة التي بنتها الدّولة لتشجيع المواهب الفنّية وتوجيهها...

كان على عبد الرّؤوف أن يرحل إلى العاصمة، فلم يكن في مدينته فرع للإدارة الجديدة، ومقرّها الوحيد في العاصمة والرحلة إلى العاصمة تستغرق ليلة كاملة وبعض ساعات من نهار.

لا بأس، كلّ شيء يهون من أجل الحقيقة والزّعيم... قال عبد الرّؤوف في نفسه واستعدّ للرحيل إلى العاصمة حاملاً لوحاته التي رسمها من دموع صوفية زوجة الزّعيم لعلّ الإدارة الجديدة تشجّعه

وتوجّهه الوجهة الصحيحة فينكشف بذلك سرّ من أسرار اغتيال الزّعيم...

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرحل فيها عبد الرّؤوف إلى العاصمة، فقد سبق له أن زارها مرّات عديدة. كان يعرف شوارعها جيّداً ويعرف مبنى الإدارة الجديدة لتشجيع المواهب الفنّية وتوجيهها، مبنى وسط العاصمة في الشّارع الرئيسي منها لكنّه لم يسبق له أن ولج المبنى ولاعرف ما فيه.

كان يمرّ أمام المبنى ويسأل أحياناً عمّا بداخله حتى جاء الوقت ليزوره ويحمل لوحاته التي رسم فيها صور الثّلاثة الذين اغتالوا الزّعيم وفرّوا ولم تتعرّف إليهم صوفية لكنّها حاصرتهم بدموعها...

وصل عبد الرّؤوف إلى العاصمة قبيل شروق الشّمس بقليل، مازال أمامه بعض الوقت ليصل إلى الادارة الجديدة. ولم يشأ أن يستعجل الذّهاب إليها فالمسؤولون هناك لا يرغبون أن يسبقهم إلى المكاتب أحد مهما علت موهبته. وعبد الرّؤوف يعلم أن من عادتهم أن يتاخروا قليلاً عن وقت العمل الصباحي إذ يسهرون ليلهم يقيمون أعمالا لم يعرف بعد عنها شيئاً لكنّه يعلم أنهم يسهرون للنظر فيها.

لم يعجل وآثر أن يبحث عن مكان يأكل فيه لقيمات بعد أن قضى ليله في السفر لم يأكل شيئاً يمنعه عن ذلك الفرح بلوحاته حتى كان الصّباح.

أحسّ ببعض الجوع فبحث عن شيء يسدّ به رمقه لعلّه يبطئ هناك قليلاً ويستبقيه مسؤولو الإدارة الجديدة بعدما تبهتهم دقّة رسمه وعظمة موهبته...

بين محطّة القطارات ومبنى الإدارة بعض المطاعم التي تعوّدت أن تفتح أبوابها باكراً لاستقبال القادمين إلى العاصمة من المدن الأخرى تقدم لهم ما يطلبون...

تخيّر عبد الرّؤوف مكاناً قريباً واكتفى بشطيرة من الزُّبدة وكوب من الحليب كأنه يستعجل وقت وصوله إلى الإدارة وقد شغلته لوحاته فلم يبطئ الأكل ولم يطل المضغ وازدرد طعامه سريعاً ونظر إلى ساعته وانطلق...

مازال أمامه ما يكفي ليصل إلى الادارة الجديدة في أول الوقت، ولو تأخر ما سأله أحد عن سبب تأخره.

لم يكن عبد الرّؤوف يظنّ أنه سينتظر كل ذلك الوقت ليقدم لوحاته إلى المسؤولين، وكان يتحرّق شوقاً إلى قدوم أحدهم وقد أجلسه حارس الباب على كرسي في المدخل الأرضي للادارة وأمره أن ينتظر حتى يأتي من يهمه الأمر من مسؤولي التشجيع والتوجيه...

جلس عبد الرّؤوف ينتظر ورأى وجوها كثيرة تدخل تباعاً إلى الادارة كلّما دخل واحد همّ أن يكلّمه ويعرض عليه لوحاته فيشير إليه حارس الباب بحركة من رأسه عادة ما تأتيه بعد أن يكون الداخل قد جاوزه بخطوات عديدة...

حان الوقت لقد جاء المسؤول الذي انتظره عبد الرّؤوف طويلاً، كان آخر الداخلين إلى المبنى وقد عرفه عبد الرّؤوف من إشارة حارس الباب ومن لباسه الفاخر...

استوقفه وحيّاه، رمقه ولم يردّ التحية وتركه وانصرف وظلّ عبد الرّؤوف ينتظر، كان المسؤول في مكتبه يقرأ تقارير وصلته عن عبد الرّؤوف وعن مطلبه لكنّه لم يكن يعلم عن هذه الموهبة الجديدة التي تعلّمها عبد الرّؤوف، فعبد الرّؤوف لم يخبر عنها أحداً، وهذه هي المرّة الأولى التي ينوي إخبارهم عنها لعلّه يساعد في كشف أسرار الزّعيم.

بهت مسؤول التوجيه حين حدّثه عبد الرّؤوف عن موهبته في فنّ الرسم بالدّموع فلم يسمع بها من قبل، ولم ترد في التقارير التي وصلته، وتوجّه باللّوم إلى عبد الرّؤوف عن تقصيره في حق الإدارة. فاعتذر عبد الرّؤوف بأنه أراد أن يخصّ بها إدارة العاصمة فقط حتى لا تضيع بين النّاس دون توجيه أو تشجيع.

قبل المسؤول عذره كمذنب تاب عن ذنبه ثم نظر في اللّوحات وأدرك ما فيها وأخفى انزعاجه منها حتى لا يتفطّن عبد الرّؤوف إلى قصده ثم نظر إليه وأمره أن يبيت الليلة في العاصمة على حساب الإدارة التي ستوفّر له الإقامة والطعام...

تشجيع مشجّع... قال عبد الرّؤوف في نفسه ولم يشكّ لحظة أن في الأمر سرّاً كأسرار اللّوحات التي يحملها ورسمها من دموع صوفية...

سرّ التشجيع المشجّع كما ظنّه عبد الرّؤوف لم يدم طويلاً مثلما دام سرّ اغتيال الزّعيم فقد انكشف له حين خطا خطوته الأولى في مكان الإقامة الذي هيّأته له الإدارة.. كان يمشي خلف حارس الباب الذي كان يومئ له برأسه هذا الصباح حين دخول المسؤولين.

تبعه حتى دخل به غرفة كالزنزانة... ريح نتنة ومكان ضيّق وحصير بال وباب من حديد له صرير كصرير "كميون" الجيش وبيّاش الرّهيب يزحزحه من مكانه..

كاد عبد الرّؤوف أن يبكي حين تذكّر "كميون" الجيش لكنّه صرف التّلاميذ عنه ولم يشأ أن يفسد لحظة نشوته بالتّشجيع المشجّع الذي ينتظره وفوجئ بالمكان وتجرّأ على سؤال الحارس.

طمأنه الحارس كما أمر أن يفعل: هي ليلة واحدة وينتهي كل شيء...

لكنّ الليلة امتدّت ليالي عديدة، كلّ ليلة يأتيه حارس جديد يدّعي أنه لا يعرف وأنّ الأمر ليس بيده لكنّه يظنّه يتعلّق بدموعه وموهبته الغريبة.. قال حارس اللّيلة الأخيرة، عندها أدرك عبد الرّؤوف أنّ التّشجيع لم يكن مشجّعاً، وبات لياليه الجديدة دون دمع ولم يجد دموع صوفية قربه ليواصل الرسم ومضت لوحاته التي كادت تنزف دموع صوفية إلى حيث لا يدري.

لم يكن مكان الليالي الجديدة مناسباً إلاّ للبكاء، لكنّ عبد الرّؤوف أمسك عينيه وجفّف دموعه حتى لا يرسم ما يمكن أن يطيل إقامته التي جاءته عن غير موعدة أو عشق. لم يبق أمام عبد الرّؤوف سوى

الذّكرى والعودة إلى سكّة الحديد حيث ينتظره أخوه الصغير وأستاذ التاريخ وقد رحل ولم يودعهما رغبة في عدم كشف السرّ فانهالت عليه الأسرار...

استبدت بعبد الرّؤوف الشّكوك في مبيته الجديد وكاد يندم على مجيئه إلى العاصمة لولا أن أستاذ التاريخ اقتحم عليه مبيته الغريب.

كان عبد الرّؤوف ما تبقّى من أحلام الأستاذ وإن شوّه مذياع الدّولة الجديدة بعضها حين لم يذكر اسمه في قائمة نهاية السنّة الدراسية، لكنّ الأستاذ ما زال يحفظ حلمه فجاء إلى عبد الرّؤوف في مبيته الغريب بضيف غريب حتى لا يقتله الشكّ كما قتل بيّاش الرّهيب أحلامه الأخرى...

خاطب الضّيف عبد الرّؤوف بلغة الفرنسيس وقد تعلّمها عبد الرّؤوف في معهد المدينة فلم يجد صعوبة في فهمه.

قال الضّيف وقدّم نفسه: أنا شارل سومانيه التقيت الزّعيم صالح ومازحته قليلاً وأنا أعرض عليه التّهم التي تكال إليه. ذكّرته بأصله البربري ومذهبه الخارجي وهو يثير الفتنة في الجزائر وفي تونس لفائدة عبد الناصر حتى تصير إليه زعامة العرب. وسألته عن الأموال التي تأتيه من ليبيا... هكذا قالوا عنه، فحملت إليه قولهم ورجعت إليك بقوله حين دعاني أستاذك للتاريخ فعجلت ولم أبطئ كما أبطأت القنطرة وسبقها بيّاش الرّهيب إلى التلاميذ وإلى "كميون" الجيش الهرم وإلى نفسك...

مدّ الضّيف إلى عبد الرّؤوف ورقة ملفوفة بدقّة وعناية ونصحه أن يفتحها بأناة حتّى لا يذهب بعضها فهي ورقة عتيقة قديمة وبقية من جريدة اهترأت.

أخذ عبد الرّؤوف الورقة كأنّه يعانق رضيعاً وفتحها كما أوصاه ضيفه فانهمرت دموعه من جديد وأعادت رسم الورقة كأنها كتبت لتوّها...

مرّة أخرى تعود موهبة الرّسم بالدّمع إلى عبد الرّؤوف دون إذن مسؤول إدارة التّشجيع والتوجيه. كان عبد الرّؤوف يبكي وكلّما بكى سقطت دمعة ورسمت جزء من الورقة حتى بان ما فيها واستوت مفتوحة كلّها فأرسل فيها عينيه...

ضيفه ليس من مدينة بيّاش الرّهيب حيث يسكن عبد الرّؤوف ولا من العاصمة حيث تقيم الدّولة الجديدة، هو من الفرنسيس الذين كانوا هنا، نشط كثيراً وأعدّ لاتّفاق جوان خمساً وخمسين الذي أغضب الزّعيم صالح فاختلف مع رجال الدّولة الجديدة حتى حكموا عليه بالإعدام بعد الاتّفاق بسنة... لم يقبضوا عليه فاهتمّوا به وانشغلوا به عن القنطرة فحلّت النكبة بعبد الرّؤوف.

كان على الزّعيم أن يحضر ليعدم حتى لا يحرم بيّاش الرّهيب من قنطرته العظيمة ولا تحلّ النكبة الثالثة بعبد الرّؤوف لكنّه آثر الفرار إلى ليبيا ليواصل مشاكسة رفاقه في الدّولة الجديدة فيزيد انشغالهم به ويهملوا أمر القنطرة.

رضيت الدّولة الجديدة منه ذلك واكتفت باعتقال عدد من أنصاره ولم يستطع هو أن يشهد جنازة صديقه رئيس شعبة "الحامّة" الذي قتل قبل فراره بيومين... هكذا قال الضيف لعبد الرؤوف فتبيّن لعبد الرّؤوف أنه لم يكن اليوسفيّ الأول.

ضيفه استطاع أن يتسلّل إلى بيت صالح صحبة البحري...

كان البحري من أصدقاء الزّعيم ترافقا معاً ونفيا إلى صحارى الجنوب القاحلة بعد أن رفضاً التّهدئة التي طالب بها الباي وممثّل الفرنسيين في تونس.

اجتهد الباي لينال رضى المقيم العام ويكسب ودّ فرنسا، وكلّما زاد في اجتهاده زاد "بيروتون" المقيم العام من الأراضي الخصبة التي يمنحها للمعمّرين ويفتكّها من التونسيين... كان الباي يجتهد وكان "بيروتون" يفتكّ ويطلب التّهدئة، لكنّ صالح والبحري والطاهر والهادي ومحي الدين وخميّس رفضوا هذا الطّلب فاستقبلهم برج "القصيرة" بصحرائه القاحلة وحرارته اللاّفحة...

الرّحلة الى البرج شاقّة ومليئة بأسرار لم تشأ الدّولة الجديدة أن تكشفها كأسرار موت الزّعيم، وصاغتها بصيغة جديدة كجدّتها.

كانت الدّولة الجديدة تستبدل كلّ شيء تراه قديماً وكل شيء يرفض أن يلبس لبوسها الذي توزعه طوعاً أو كرها...

أبدلت الرّجال والكراسي والأحاديث وأبدلت البدلة الأنيقة الجميلة التي لطّخها "المطاوة" بالطامطم حتى احمرّت يوم أن رفض

الحبيب الاستماع إلى نصيحة صالح ومضى إلى سيارته "الرينو" ممتشقاً سيجارته في نهار رمضان.

كان الضّيف يتحدث إلى عبد الرّؤوف ينتقل من حديث البرج ورحلته الطّويلة إلى أحاديث بورقيبة و"الصيّاح" والاستبدال وغيرها... وقد جاء هذه المرّة بحديثه إلى صالح قبل خروجه إلى ليبيا بثلاثة أيّام. لم يكن يعلم أن صالحاً سيغادر إلى ليبيا فقد جاء يحدّثه عن شكوك رفاقه في الدّولة الجديدة حول علاقته بآخرين لم ترض عنهم الدولة ولا يرتاح إليهم الفرنسيس.

لم يكن الضّيف يعلم أنّ صالحاً سيغادر بلاده ولم يمض على عودته من منفاه سوى سنة واحدة حين جاء رجل إلى صوفية يخبرها أنّ رجال الدّولة الجديدة يعتزمون القبض على صالح وأنّ عليه أن يغادر قبل أن يصلوا اليه.

لم يقتنع صالح بكلام الشاذلي وتحذيره وأصرّ أن يبقى، وقد ظنّ أن الشاذلي يتهرّب من العمل، لكنّ الشاذلي تحايل على صالح وأخرجه من بيته وفوّت على الدّولة الجديدة فرصة إلقاء القبض عليه. ولم يجل بخاطره أنّه فوّت على بيّاش فرصة وصول القنطرة إليه فلم تكن الدولة الجديدة لتقتنع بخروج صالح، فأجّلت وصول القنطرة حتى تنتهي من أمر صاحبها الآبق.

لم تصل القنطرة إلى بيّاش الرّهيب والنّكبة حلّت بالتلاميذ وبعبد الرّؤوف والدّولة الجديدة استضافته في مبيتها تسأله عن الرّسوم التي رسمها بدمعه وظنّ أنه كشف سرّاً آخر من أسرار موت زعيمه صالح.

ولولا هذا الضّيف الذي أنزله عليه أستاذه لذهب به الشكّ مذاهب شتّى في مبيت غريب لم ينتظره ولم يأنس به.

كان الضّيف يتحدّث فيذهب الشكّ المنزل من جدران كتنزّل الغيث من السّماء، يبدأ الشكّ حين يظلم المكان ويخيّم عليه سكون الليل وتطول الإقامة ويسألك حارس الباب وهو أعلم ألم يأتك نبأ من أهلك هذه الأيّام؟

يصمت الحارس قليلاً فيسبح خيال عبد الرّؤوف خارج المبيت الغريب يبحث عن جواب لسؤال الحارس ويقطع سباحته مسؤول الإدارة وقد جاءه حاملاً نُتفا من أقوال الزّعيم يقطعها عمّا قبلها ليزيد من شكّ عبد الرّؤوف فيجفّف دمعه وينتهي به عند بيّاش الرّهيب صامتاً لا يعرف شيئاً...

قال المسؤول وقد أبان لعبد الرّؤوف جزء من الصّحيفة اليومية وبعض بشاشة لم تعهد في وجهه أرأيت، ألم أقل لك إن الزّعيم أعقل ممّا يشاع عنه، انظر كيف تراجع وندم على ما بدر منه.. انظر إلى قوله إنني لا أريد أن أخلق وضعيّة تعطّل مسيرة تونس نحو الاستقلال الكامل. يهمّ عبد الرّؤوف أن يسأل عن بقيّة الحديث أو سياقه ليحاجج مسؤول الإدارة الكبيرة لكنّه يجهل طريقة المسؤولين في بثّ الشكّ في النّفوس وتشويه الآخرين.

يتركه المسؤول دون أن يسمع منه سؤاله ويمضي ليعود إليه من الغد حاملاً نتفة أخرى ممّا كتب في جريدة الأمس ويتعلّل له بأنه نسي أن يطلعه على بقيّة ما قاله الزّعيم في الصحيفة:

انظر عبد الرؤوف، انظر إلى بقيّة كلام الزّعيم: أنا أيضاً أريد استتباب الأمن والسّلام والوفاق... وأنت ماذا تقول؟

لم يكن لدى عبد الرّؤوف ما يقوله. كان يريد أن يفهم، والمسؤول يريد منه أن يجفّف دمعه ويقطع فن الرّسم بالدّموع فالدّموع علامة فرقة والزّعيم يريد الوفاق والسلام.

قال مسؤول آخر لم يعرف عبد الرّؤوف اسمه: ذاكرتك غير مسجّلة وقد أتعبها السّفر والبكاء فاهترأت وذاكرة الدّولة محفوظة جديدة غير تعبة، ولا يواجه مهترئ تعب جديداً محفوظاً...

رمق عبد الرّؤوف مخاطبه من طرف خفيّ فرآه منتفخا كأنه لم يتنفّس منذ ولادته فحدّث نفسه هازئاً: لا بد أن خزائن الدّولة الجديدة وذاكرتها محفوظة داخله لو ثقب في الرّجل مقدار إبرة كم ورقا يطير منه وذاكرة تنبجس وحرفاً يتحلّل من درن معدته.. ولو بُقرت بطنه هل تسيل فرنكات أو دقيقاً أو زيتاً أو قنطرة كقنطرة بيّاش...

ذكر عبد الرّؤوف القنطرة فغيّر السؤال: أتكون الدّولة الجديدة خبّأت القنطرة في بطن هذا الرّجل الذي يحفظ ذاكرة الدّولة أم سبق هو الدولة إلى القنطرة فالتهمها حتى لا تنشغل الدّولة بها عن أمورها.. لو لم يلتهم هذا الرّجل القنطرة لأفلت الزّعيم صالح من يد الدّولة الجديدة ولم تحاسبه عن إتلاف أموال باندونغ..

كأنّ الزّعيم كان ينتظر عبد الرّؤوف في "باندونغ" فلم يستعجله حتى أدركها وحده وتوقّف عند أموالها فأجابه الزّعيم: "إنّني لست

في حاجة إلى توزيع أموال باندونغ، لو افترضنا ووجدوا هذه الأموال التي لا أعرف عنها شيئاً أنا عندي ما يكفيني للعيش واشتراكات الأمانة العامة متوفّرة..."

هكذا قالت له ورقة الضّيف التي قدّمها له في مبيته الجديد، لم يُتمّ عبد الرؤوف قراءة الورقة وأشاح بوجهه عنها حتّى لا تبلّلها دموعه ولا تلهيه قراءتها عن شوارع "باندونغ" ومعرفة أخبارها وقد صار وسطها يرى جماعة الدّيوان يتلقفون ما أشاعه الفرنسيس عن أموالها ويتولّون كبره ويحدّثون النّاس به.

في "باندونغ" التقى عبد الرّؤوف بـ"سيكوتوري" ووجده يمسك بيده دعوة إلى الزّعيم صالح ليشاركه احتفالا في بلده. وصلت الدّعوة ولم يصل الزعيم فقد سبقه الثّلاثة الذين بعثت بهم الدّولة الجديدة.

لم يستطع عبد الرّؤوف النّظر في وجه "سيكوتوري" فقد كان الحزن يملأ وجهه والدّمع يسيل من عينيه، كان يحرّك رأسه قليلاً قليلاً كأنّه يعتذر إلى "سيكوتوري" أو يعذره أو كأنّهما يعجبان لفعل الدّولة الجديدة بالزّعيم. انصرف عبد الرّؤوف متثاقلا يبتلعه شارع آخر من شوارع "باندونغ".

في الشّارع الآخر وقف عبد النّاصر ينتقد المنظّمة الدّولية وسياستها تجاه البلدان المستعمرة والفقيرة. أنصت عبد الرّؤوف إلى عبد النّاصر باهتمام كبير ورحلت به الذّاكرة إلى أيّامه الخوالي حين يجتمع مع العائلة حول إذاعة "صوت العرب" تردّد خطابات عبد الناصر...

أرسل عبد الرّؤوف ذاكرته في أيامه الخوالي وطفق ينظر إلى التّراب المنهمر من يدي عبد الناصر، أو هكذا خيّل إليه أن عبد النّاصر يحمل تراباً بين يديه ينهمر على جسد الزّعيم صالح ينام تحته ثلاثين عاماً يقيه من رذاذ بول "منداس" وترابه الذي أتى به جماعة الدّيوان يبغون استبدال تراب عبد الناصر. تشمّم عبد الرّؤوف ريح التّراب المنهمر من يدي عبد الناصر على جسد الزّعيم كأنّه يستنشق ريح الورد فانفتح صدره حتّى صار يسع "باندونغ" كلّها...

اقترب عبد الرّؤوف من التّراب المنهمر من يدي عبد الناصر وانغمس فيه كأنّه يتحمّم به أو يتطهّر من دنس علق به ولا يعرف، أو يبحث عن خشوع كخشوع "نهرو" حين دخل "باندونغ".

تحمّم عبد الرّؤوف بالتّراب المنهمر من يدي عبد الناصر وتذكر قول الهنديّ المرافق "لنهرو" "ليس لدينا من الخشوع ما يكفي ونحن ذاهبون إلى باندونغ".

ذكر قول الهنديّ فأراد أن يتطهّر عسى تطهّره أن ينزل عليه خشوعا يكفيه لدخول "باندونغ".

لكن ورقة الضّيف الذي اقتحم عليه مبيته مع أستاذ التّاريخ أذهبت بقيّة الهدوء التي كان يحياها وزادت من اضطرابه وقد كان يمنّي النّفس أن تقف الورقة دون مسؤول التّوجيه والتّشجيع الذي يدقّ الباب ليل نهار بمطرقة من شكّ تكاد تعصف به.

هلْ جاء أستاذ التّاريخ ليذهب شكيّ أم ليذهب هدوئي؟ سأل عبد الرءوف نفسه وقد انفكّ عقال السّؤال داخلها فانهمر على جدران المبيت الغريب الجديد الذي استضافته فيه الدّولة الجديدة.

ترك عبد الرّؤوف الأسئلة تنهمر على جدران المبيت الغريب وتنساب فوق الحصير الوحيد البالي الذّي يفترشه على أرض المبيت وقد لصق بها فلا يمتاز عنها.

انهمرت الأسئلة حتى امتلأت زوايا المبيت وجدرانه وقاعته وسقفه فغاص فيها عبد الرّؤوف وأهمل كل الأجوبة واطمأنّ إلى الورقة يتبع حروفها تحت ظلّ السّؤال المنهمر عليه من كل مكان يوصد الباب دون مسؤول إدارة التّوجيه والتّشجيع...

أوصد عبد الرّؤوف الباب أمام مسؤول الإدارة وأوصد المسؤول باب المبيت في وجه عبد الرّؤوف ككلّ ليلة، لكنّ عبد الرّؤوف لم ينزعج هذه اللّيلة حين أغلق دونه الباب، فالسؤال المنهمر عليه ألهاه عن الفزع فلم يشعر باللّيل يرخي سدوله عليه. ومضى نصف اللّيل أو أكثر وعبد الرّؤوف يعانق الورقة ويتبع عينيه حروفها ويرحل مع سطورها إلى حيث يرحل الزّعيم.

لم يحتج عبد الرّؤوف إلى السّمر كما احتاج إليه هذه اللّيلة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة وعبد الرّؤوف لم ينم بعد، من عادته أن يأوي إلى الفراش باكراً، لكنه اللّيلة سهر كأنه ينتظر حدثاً عظيماً...

منذ قليل أتم قراءة الورقة التي سلّمها له ضيفه الفرنسيّ ورحل مع أستاذ التّاريخ.

تملّكت عبد الرّؤوف نشوة أذهبت عنه النوم ولم يعرف لها سبباً... تقلّب فوق قطعة الحصيرعلى أرض المبيت الغريب وغازل النّوم فلم يأته.

كان النّوم يجفوه والنّشوة تشتدّ عنده حتى سمع صرير الباب الخارجيّ... ليس من عادتهم المجيء في هذا الوقت.. قال في نفسه وانتفض، فإذا مسؤول إدارة التّوجيه والتّشجيع واقف أمامه يأمره أن يحمل ما عنده وينصرف إلى أهله فقد أتمت الإدارة عملية استبدال دمعه الذي يرسم به واحتفظت بلوحاته التّي رسمها من دموع صوفيّة زوجة صالح وأراد كشف سرّ لم يحن بعد أوان كشفه...

العاشرة ليلاً فات وقت القطار إلى المدينة ولا سيارات ترجع إلى هناك، في مثل هذا الوقت لا مناص من المبيت اللّيلة هنا، ستكون ليلة طويلة يطيلها الشّوق والانتظار والقلق والشّوارع الخالية...

شوارع ذات أسماء مختلفة ليس بينها شارع واحد باسم الزّعيم كأنّه لم يمرّ من هنا ولم يعطها من جهده ودمه.

لا ذنب لها فقد أُكرهت على محو اسمه كما محت أسماء من مرّوا قبله وخالفوا الدّولة الجديدة.

طاف عبد الرّؤوف بالمدينة يفتح عينيه خطوة ويغمضها ثلاثاً فالمدينة عارية بلا ثوب وبعض الزّناة يقتحمون شوارعها ويمزّقون ما بقي من لباسها وعبد الرّؤوف يغلب عليه الحياء فيخفض رأسه ويهزّه الحزن فيلعنهم جهرا ويسبّ الدّولة الجديدة سرّاً.

لا أثر للزّعيم، أُبدل اسمه بآخر من هناك كما أُبدل دمع عبد الرّؤوف بدمع جافّ لا يرسم.

وزير الاستبدال في الدّولة الجديدة نشيط وذكيّ يحرص أن ينجز عمله قبل النّوم، أبدل العرب بالغرب والجامعة بالحلف لكنّه نام قبل أن يُبدل المستوطنين الفرنسيس بالفلاّحين التونسيين وترك الجندرمة تحفظ الأمن إذ أتعبه السّهر. تركهم ولم يعطهم تصاريح السّفر بالقنطرة إلى بيّاش الرّهيب فمنعت الجندرمة حامليها من العبور حتّى كانت النّكبة الثّالثة، ولما أفاق نظر في عيني عبد الرّؤوف ورأى حزنه بعد النّكبة وشوقه إلى الزّعيم فقرّر أن يخفّف عنه وأبدل اسم الزّعيم باسم "منداس"...

سار عبد الرّؤوف في الشّارع المسمّى باسم "منداس" ينطّ من هنا وهناك يضع يديه على رأسه ويغطّي وجهه حيناً آخر كأنه يتقّي مطراً لم ينتظره... سبح بعبد الرّؤوف خياله بعيداً فظنّ أنّ "منداس" الآن واقف حيث كتب اسمه في أول الشّارع في الزّاوية العالية منه يرسل بوله على العابرين...

كان عبد الرّؤوف يتجنّب بول "منداس" ولا يهتمّ أن يضاف اسمه إلى قائمة المنسيّين الذين لم يذكر المذياع أسماءهم في قائمة نهاية السّنة الدّراسية. المهمّ عنده أن يخرج من الشّارع دون أن تمسسه قطرة من بول "منداس" العفن حتّى يدرك وقت الصّلاة وقد قرب طاهرا غير نجس خلف الزّعيم الذي يقف الآن فوق منبر الجامع الأعظم يستعدّ لخطبة القطيعة...

ذهب الزّعيم إلى الجامع الأعظم ولم يستشر رفيقه بورقيبة والتقى جماعة من قادة النّضال دون علم بورقيبة الذي كان في جولة في بعض القرى السّاحلية.

استعدّ صالح لخطبة القطيعة حين كان بورقيبة يستعدّ لطعام الغذاء الذي أعدّه له مضيّفوه في قرى السّاحل... "الكسكسي بالعلّوش" عادة التونسيين في إكرام الضّيف.

أحضر "الكسكسي بلحم العلّوش" واستعدّ الجماعة للإفطار حين دخل عليهم عبد الله فرحات وأعلم بورقيبة بخبر الجامع الأعظم...

لحظة صمت رهيبة سبقت جنون بورقيبة من سماعه الخبر، انتظر الجميع رد فعله فإذا به يقلب مائدة الطّعام من أمامه لينتشر "الكسكسي ولحم العلّوش" على الأرض ويحرم الجماعة من وجبة دسمة محبّبة إلى نفوسهم مثلما حُرم التّلاميذ وعبد الرّؤوف من طعام "البركوكش" يوم جاء بيّاش ووضع حمله وقذف به إلى المصبّ.

يومها لم يستطع "كميون" الجيش الهرم أن يرجع بالتلاميذ ليدركوا طعام "البركوكش" فرحلوا إلى مصبّ الوادي وتركوا أهاليهم في خوف وحزن ورعب. كذلك فعل بورقيبة بوليمة "الكسكسي بالعلّوش" قائلاً: "سأربّي هذا الشعب على الخوف حتى تستقيم مسيرته..."

اغتاظ الجماعة من صالح ومن خطبة القطيعة التي حرمتهم وليمة دسمة فقرّروا أن يخرجوه من بينهم وقاطعوه وجرّدوه من صفته ومن مهامّه لكنّ عبد الرّؤوف لم يسمع كلامهم ولم يرض فعلهم وظلّ

يناديه بالزعيم ويمشي في شارع "منداس" يتّقي بوله ويشتُم الدّولة الجديدة التّي انشغلت بأمورها عن حمل بيّاش الرّهيب فاغتاظ بيّاش منها وأجهض حمل "كميون" الجيش الهرم وأحل بعبد الرّؤوف نكبته الثالثة...

لا يدري عبد الرّؤوف متى ستفرغ الدّولة من مشاغلها لكنّه يعلم أنّه الآن في العاصمة وقد نجا من رذاذ بول "منداس" وسار في شوارع أخرى لم ينتبه إلى أسمائها فأوقف سيره.

كان يحدّث الأستاذ حينا ونفسه أحياناً أخرى ويرحل في كثير من الأحيان إلى بيّاش الرّهيب وتحضر أمامه صور التّلاميذ يتصايحون ويتسابقون إلى الموت، يقفزون من "كميون" الجيش الهرم الذي أوقف سيره بيّاشُ الرّهيب وحمل معه التّلاميذ غضباً على الدّولة الجديدة التي لم تبعث إليه بقنطرة جديدة...

تحضر صورُ التلاميذ عبد الرّؤوف فينفصل رأسه عن جسده ويوغل في حزنه ويمشي لا يعلم أين تأخذه قدماه.

قدماه تسيران به الآن بعيداً عن رأسه الحزين، تخرج من شارع الى شارع، تسير ولا تأبه... حين بلغت شارع الحرّية عاد الرأس إلى مكانه...

شارع الحرّية طويل كطول بيّاش، منطلق مثله منفتح من جهتين كأنّه يريد أن يعبر عن اسمه لكنّه ليس رهيباً كرهبة بيّاش الذي لم تصله القنطرة لانشغال الدّولة بأمورها حتى غضب وفعل فعلته بعبد الرّؤوف وبالتّلاميذ وبـ "كميون" الجيش الهرم...

لم تأت القنطرة إلى بيّاش الرّهيب فبقي حرّاً منطلقاً لا يحدّه شيء ولا تقيّده القنطرة. وشارع الحرية أحاطت به شوارع من جانبيه فبقي فاغراً فاه ينبعث منه بعض نسيم من اسمه يضيع في الزحام. وقف عبد الرّؤوف في آخر الشّارع، طاف أوّله وآخره ولم يشعر أنّ الشّارع يلقي عليه شيئاً من اسمه. اشتدّ ضيقه وبرم بمكانه فاتّخذه ظهريّاً.. كان الشارع محاصراً على يمين عبد الرّؤوف بشارع مدريد يليه شارع لندن وأمام عينيه يقف ثامر تسنده من خلفه عن شمال عبد الرّؤوف باريس وعن يمين ثامر روما...

ارتمى ثامر في أحضانهم جميعاً حتى يشمّ نسائم الحرّية التي يبعث بها الشّارع المقابل له حيث يقف عبد الرّؤوف الآن ظهريّاً ينظر إلى ثامر.

لا حرّية إلاّ من هناك من مدريد ولندن وباريس وروما... قال الحبيب للحبيب ورماه بينهم واقفاً ينتظر، تحول بينه وبين عبد الناصر سفارة الفرنسيس الذين جاؤوا من قبل إلى هنا وحاول ثامر ومن معه إخراجهم، كان صالح معهم لكنّهم طردوه وأجبروه على الخروج ليبقى ثامر وحده وسط تلك المدن التي تبعث بالحرّية في صناديق "كميون" جيشها الجديد يعبر الارض لا يحبسه غير الجبل، هناك يرمي حمولته كلّها جيشاً وعتاداً وصناديق محشوة بالحرّية تختلط وتذهب مع صدى الريح في الجبل.

لكنّ الجبل الآن فارغ لم يعد فيه من الرّجال إلاّ القليل، دعاهم بورقيبة جميعاً للنّزول فنزل منهم أكثر من ألفي رجل لم يسمعوا كلام

صالح الذي دعاهم للبقاء في الجبل حيث نبات "الشّيح" و"العرعار" والحرّية لكنّ المأدبة التي دعاهم إليها بورقيبة كانت أدسم وصناديق الحرّية جاءت مع "كميون" الجيش الجديد فنزلوا...

لم يبق في الجبل من الرّجال إلاّ القليل، ومن بقي لن يهتم لصناديق الحرّية التي نزلت مع حمولة "كميون" الجيش الجديد...

كانوا قليلاً، عددهم لا يسمح لهم بتشتيت جهودهم وقد كانوا مهتمّين بالحمولة الأخرى... بالجيش والعتاد.. حتى خرجت الصّناديق مع الذين نزلوا عند أمر الحبيب وتسلّمها منهم ووزّعها وسط المدينة لكلّ شارع فتات صندوق واحتفظ بباقي الحمولة عنده في خزانة بيته. أكثر الفتات نزل حيث يقف عبد الرّؤوف الآن ينظر إلى الدكتور ثامر تحاصره مدن الغرب من جهاته كلّها وتغريه بالحسان وببعض أبخرة الدخان وتحول دونه ودون الوصول إلى عبد الناصر.

لو وصل الى عبد الناصر لالتقى الزعيم صالح لكنّ عبد الناصر الآن يقف وحيداً بعد أن طُرد صالح من بلاده. ظلّ عبد الناصر وحيداً يُطلّ عليه المنجي بالي من طرف خفيّ كأنه يأسف لحاله وقد حيل بينه وبين الدكتور ثامر فلم يلتقيا.

مدن الغرب تحاصر ثامر من كل الجهات وعبد الرّؤوف ينظر إليه خلسة كأنه يعجب أن يضنّ شارع الحرّية ببعض نسائمه على ثامر وقد ضحّى كثيراً لأجلها. باريس وراء ظهره بعدما كانت تقف على أرضه وتكتم أنفاسه وأنفاس الزّعيم وأنفاس عبد الرّؤوف أو تحاول، وكان ثامر يصارع من أجل أن يشمّ بعض نسيم الحرّية وتجهد باريس

أن تسدّ منافذها جميعاً. والآن بعد أن جاء "منداس" ورحل ثامر واتفق الحبيب مع الفرنسيس، وبعد أن فر الزّعيم صالح خارج البلاد وقفت باريس خلف الدكتور ثامر يطل منها "مسيو كمبون"، يحمل معه كتبا كثيرة... كتبا في الجغرافيا وفي الحساب والهندسة، كلّها بالفرنسية، جاء يستعيض بها عن عربية خير الدّين في "الصادقية".

لم يجد "كمبون" غير باريس التي تقف خلف ثامر يطلّ من ورائها ويرقب كيف تحفظ وقوف الدكتور وسط مدن الغرب...

عرج عبد الرّؤوف على شارع باريس يشدّه إليه بناؤه الجميل، كان الوقت ليلاً والمغازات مغلقة وبالكاد يمرّ شخص أو شخصان ولا ينتبه إلى عبد الرّؤوف يجول ببصره في بناء الشّارع ويمشي ببطء كأنّه يبحث عن شيء مفقود. فجأة تلفّت كأنّ رعب بيّاش الرّهيب نزل به وكاد يحمله إلى حيث حمل التّلاميذ قبله. تلفّت فإذا برجل منكبّ على كتبه يقرأ بين همس وجهر، يتصفّح ويطيل النظر في صفحات كتبه... خيّل إلى عبد الرّؤوف أن الرّجل مجنون فلم يكن في الشّارع سواه، وكان يجهر بالقراءة حيناً وقد يهمس بها أحياناً ويلتفت إلى شارع باريس الذي يسند الدكتور ثامر. كان يقرأ كشيخ التفّ به مريدوه...

همّ عبد الرّؤوف أن ينصرف فلا يُؤمن مجنون في مثل هذا الوقت غير أن رأسه الذي رجع إلى مكانه بعد أن رحل عنه حين وقف في شارع الحرّية دفع به إلى أن يقترب من الرّجل الذي خيّل إليه أنه مجنون..

المجنون لا يقرأ كتباً في التاريخ والجغرافيا والحساب.. قال في نفسه، وحين اقترب منه تبيّن ملامحه فصرف خياله الذي جمح به إلى أن يظنّ بالرّجل الجنون، فقد عرفه... إنه "مسيو كمبون"، الذي أبدل لغة "خير الدّين" بلغته وبلغة باريس التي تقف خلف الدكتور ثامر.

قرأ عبد الرّؤوف كلّ تلك الكتب، لم يفلح في فهم الهندسة والحساب لكنّه ولع كثيراً بالتاريخ والجغرافيا. قرأها بلغة "كمبون" و"منداس"، قرأها جيّدا لكنّ مذياع الدّولة الجديدة لم يذكر اسمه في قائمة الناجحين، فقد تبيّن للدّولة الجديدة أن عبد الرّؤوف كان يقرأ التّاريخ والجغرافيا بالمقلوب، ولم يفلح في فهم الهندسة لأنه لم ينضبط لحدود المكان، وفشل في الحساب لأنه لم يقرأ حساباً لأماني والده الشّيخ الذي اشترى المذياع خصّيصاً لسماع ابنه في قائمة نهاية السّنة الدّراسية.

لم يرق للدّولة الجديدة ما فعله عبد الرّؤوف فمنعت المذياع من ذكر اسمه وطبعت على أوراقه وسم المخالفين ولم ترسل القنطرة الى بيّاش الرّهيب وتتالت النّكبات على عائلته.

انتظر عبد الرّؤوف طلوع الفجر.. سويعات قليلة تفصله عن الفجر ظنّها تمرّ بسرعة لكنّها طالت وتمطّطت حتىّ خيّل أليه أنّها لن تزول ولن يطلع الفجر ولن يعود إلى مدينته...

سار في الشّوارع الخالية يهزّه الشّوق إلى مدينته غير مصدّق أنه غادر المبيت الذي استضافته فيه الدّولة الجديدة رغماً عنه، شوقه

يطيل من ساعات الانتظار ويمدّد الزّمن في نفسه فتضيق ويذكر كيف كانت صوفيّة ترقب عودة الزّعيم من النزل.

سيطلع عليه الفجر لا محالة لكنّ صوفيّة لن ترى الزّعيم مرة أخرى، فقد غدر به الثلاثة الذين بعثت بهم الدّولة الجديدة ليتبعوه، فقتلوه وفرّوا ورسمهم عبد الرّؤوف بدموع صوفيّة وانتظر تشجيعاً من الدّولة فاستضافته ووعدته خيراً لم يأت بعد...

ظلّ عبد الرّؤوف ينتظر الفجر وينتظر وعد الدّولة لكنّ نفسه حدّثته أن الدّولة لن تفي بوعدها حتى تفرغ من شؤونها ومشاغلها ولا يدري عبد الرّؤوف متى تفرغ الدّولة من مشاغلها. ضرب كفّا بكفّ، فلا تفرغ دولة من مشاغلها، ومضى يرقب الفجر فقد برم بالعاصمة وشوارعها الخالية ذات الأسماء الغريبة التي تُذكّره موت الزّعيم وعبث وزير الاستبدال بالأسماء.

عبث وزير الاستبدال باسم الزّعيم وأبدله باسم "منداس" ورمى الدكتور ثامر وسط مدن الغرب تحاصره من كل مكان تشدّ ظهره باريس ويطلّ عليه من خلف الرّصافة "كمبون".. كثير من الأسماء التي لم ترق لجماعة الاستبدال محاها الوزير ومن لم يستطع إليه حيلة رماه في ضنك وضيق شديدين...

خيّبت العاصمة ظنّ عبد الرّؤوف وصادرت إدارة التّوجيه والتّشجيع لوحاته ونزعت عنه موهبة الرّسم بالدّموع فانتقل بالقطار إلى مدينة بيّاش الرّهيب وترك أسراراً كثيرة مكتوبة داخل لوحاته

المُصادرة واستند إلى حقيبته المملوءة بأسماء جديدة غريبة عنه واستسلم للنّوم أو حاول...

أرهقه طول الليل فحاول أن ينام وأتعبه السّير في شوارع العاصمة ولم يجد في القطار الخرب غير حقيبته المملوءة بالأسماء الجديدة يُسند إليها رأسه ويحاول أن ينام...

القطار خرب يسير بطيئاً ويهتزّ بين الخطوة والأخرى فتنتفض الأسماء الجديدة من تحت رأس عبد الرّؤوف، من داخل حقيبته التي استعاض بها عن الكراسي المفقودة في القطار...

تهتزّ الأسماء فتخزُ عبد الرّؤوف وخزاً مؤلماً يستفزّه ويذهب عنه النوم فيرفع رأسه ويرمي بصره إلى نافذة القطار، ينظر في بقع الظّلام تتبدّد في الفضاء رُويداً رُويداً، كلّما خطا القطار خطوة تبدّدت بقعة أو بعض بقعة من الظّلام السّابق وقاربت الشّمس على البزوغ وتوضّحت الرؤية أمام عبد الرّؤوف وبدا له الطريق على جانبي سكّة الحديد.

كان القطار بطيئاً فتمكّن عبد الرّؤوف من ملاحقة مشاهد الطريق الهاربة من القطار...

لم يكن في الطّريق ما يشدّ الانتباه... قاحلا أجرد أصفر... كان الطّريق فاغراً فاه ينتظر كما انتظر بيّاش الرّهيب القنطرة التي لم تصل حتى حلّت النّكبة بعبد الرّؤوف.

تهبّ ريح الصباح قليلاً خفيفة فيمتلئ القطار من غبار الطّريق يسدّ نفس عبد الرّؤوف وأنفاس المسافرين فيلعن عبد الرّؤوف الدّولة

الجديدة التي انشغلت بأمورها عن إرسال القنطرة وغرس الأشجار على جانبي الطريق.

همس عبد الرّؤوف إلى نفسه: مات الزّعيم وفرغت الدّولة من أمورها فلماذا لا تغرس الأشجار ليقلّ الغُبار الهاجم على الطّريق؟

فاض الهمس من نفس عبد الرّؤوف واسترقه رجل جالس إلى جانبه...

شيخ طاعن في السنّ، ابن بلده، سبق عبد الرّؤوف إلى العاصمة واستضافته الدّولة الجديدة على حسابها قبل أن تستضيف عبد الرّؤوف، خفي عنها أول الأمر لكنّ عيونها فطنت إليه وهي تقلّب النّظر في الدّفاتر القديمة.. هكذا هي الدّولة حين تفرغ قليلاً من مشاغلها تعود إلى الدّفاتر القديمة تشبعها بحثاً وتنقيبا لعلّها تظفر بمن نسيته مسجّلاً فيها فتستضيفه وتنتهي من أمره.

همس عبد الرّؤوف في نفسه وقد تذكّر أمر الرّجل قليلاً: تبحث في الدّفاتر حين تفرغ ولا تهتمّ بالقنطرة...

تكلّم الشيخ مخاطباً عبد الرّؤوف:

لم يشمل الاستبدال الغُبار والأشجار والطّرق، مازال قاصراً على الأسماء، والأسماء كثيرة وجماعة الاستبدال تنقّب في دفاترها القديمة عمّا خفي عنها من أسماء كان بينها وبين الزعيم ودٌّ....

لكنّ عبد الرّؤوف مازال يرسم صورة للرجل في ذهنه فما تذكّره عنه غير كاف ليسترسل معه في الحديث وقد علّمه مبيته الغريب أن لا يطمئنّ حتى يعرف.. سأل ذاكرته فلم تبخل عليه: إنه هو ذاك

الرّجل الذي لم يسمع كلام الحبيب ولم ينزل من الجبل واحتفظ بسلاحه.

تأمله عبد الرّؤوف مليّاً، مازال الرّجل يحتفظ ببعض قوّته رغم تقدّم السنّ ورغم الدّولة الجديدة التي استضافته على كبر ونزعت سلاحه وجرّدته منه ثم تركت أمره للقدر، لكنّها نسيت أن تجرّده من ذاكرته. كانت تظنّ أن الرّجل لا يملك إلاّ سلاحه فلم تنتبه إلى ذاكرته التي خبأها قبل أن تخرّبها الدّولة الجديدة. كان رجلاً خبيراً لم يأمن مكر الدّولة ولم يطمئنّ إلى دعوتها حين دعته إلى العاصمة وظنّ أن في الدّعوة سرّاً. أعدّ عدّته للسفر إلى العاصمة وحمل معه سلاحه الذي لم يرض أن يسلّمه إلى "منداس" واحتفظ بذاكرته وخبّأها عن الدّولة وقد غرّها منه أن سلّم سلاحه إليها... لم تعد له به حاجة فقد هرم وصدئ لكنّ الذاكرة لا تموت.

التقى عبد الرّؤوف في القطار كلاهما عائد من مبيت الدّولة الجديدة...

سلّم عبد الرّؤوف لوحاته وسلّم هو سلاحه. خبّأ الرجل ذاكرته ونجحت الدّولة في استبدال دموع عبد الرّؤوف حتى يكفّ عن الرّسم بالدّموع. التقيا في القطار وقد ملأ الغبار أنفيهما، سبّ عبد الرّؤوف الدّولة الجديدة وتذكّر الرّجل اسما آخر من أسماء الذين استبدلتهم الدولة. تذكّره حين نظر إلى الطّريق وقد غابت عنه الأشجار، فلم يعد "المولهي" رئيساً لإتّحاد الفلاّحين وقد أغضب الدّولة الجديدة ولم يرض وزير الاستبدال فمضى ونام الاتّحاد وظلّ الطّريق إلى مدينة

بيّاش الرّهيب قفرا ذا غبار شديد يستنشقه المسافرون في القطار وعبد الرّؤوف والشّيخ الطّاعن في السنّ العائد من مبيت الدولة الجديدة التي استبدلت كلّ الأسماء ونسيت أن تستبدل الغبار من الطّريق، يستنشقانه أحياناً كثيرة ويتجنّبانه حيناً قليلاً. يتحدّثان ويخرج حديثهما من بين الغبار الهاجم على القطار، كان حديث ذكرى ينطلق كالقطار يسرع فيمضي حديثهما عن المدينة واللّيالي الخوالي وتخرج زفراتهما حين يقف الكلام على أبواب الزّعيم ودموع صوفيّة ومؤتمر صفاقس وقد دخلها القطار بعد ليلة من السّفر.

ذكّرته صفاقس مؤتمر الطّرد وذكّرته مدينة "حمام الأنف" التي اجتازها قبل صفاقس مبيت الزّعيم فيها ليلة قبل تسلّله خُفية خارج البلاد هربا من الدّولة الجديدة. لم يفت عيون الدّولة خروج صالح مع الشاذلي إلى دار "بن تنفوس"، تبعتهما لكنّ الشاذلي ضلّلها فعادت بعد أيام تلاحق سائق الزعيم وقد أفلت منها زعيمه.

لم يكن أمام الشاذلي إلاّ التّضليل وقد أدرك الخطر فانعطف وغيّر الطّريق وأسعفته ذاكرته. تذكّر الدّار التي كان يسكنها حين كان ابنه مريضاً ونصحه الأطبّاء أن يقيم بعيداً عن الشواطئ فاختار ضاحية "مرناق". وتذكّرها الآن فانعطف إليها واتّجه إلى الدّار التي اكتراها من شيخ الإسلام بن يوسف الملاصقة لسانيتي "حرمل" و"بوثور". ولج الباب الضّخم وظلّت الحراسة خارج الباب فخرج الشاذلي مع الزّعيم من الباب الخلفي وعاد إلى بن عروس بعدما أمر صديقه عبد الرّزاق

أن يعود بالسيّارة إلى "الخربة" بـ"باب الجزيرة" وينام فيها ويسمع الأخبار في الصّباح.

حين أتمت الإذاعة تقديم الأخبار صار الزّعيم مغضوباً عليه ومطلوباً وصارت الإذاعة ذات اختصاصين، اختصاص منع الذّكر واختصاص نشر الغضب والطلب...

يمضي القطار يُغادر مدينة فاقس وتهبّ نسائم مدينة بباش الرّهيب على عبد الرءوف. مازال بعض الوقت حتى يصل القطار إلى هناك، لكنّ نسيمها يسبق الوقت إلى عبد الرّؤوف فتتحرّك نفسه ويزداد شوقه وخشيته. يشتاق إلى المدينة ويخشى أن تزدحم صور التّلاميذ على ذاكرته من خلال نسيمها الذي يقتحم عليه القطار فيوغل في الحزن ويطول سفره.

طوّف عبد الرّؤوف في افتراضاته عن الزّعيم وحدّث بها رفيقه الشّيخ الطّاعن في السنّ وبادله الشّيخ حديثه فقد كان هو الآخر يوسفيّا يحبّ الزّعيم وله معه ذكريات، كان يسمع لعبد الرّؤوف ويحرّك رأسه كمتحسّر على ما فات..

زفر الشّيخ وحضرته صورته وهو شابّ جالس إلى شيخ من شيوخ الجامع الأعظم يعرض ما حفظ من القرآن الكريم أو يسمع دروس اللّغة والفقه والمغازي... كان ذا حافظة قويّة وبه رغبة جامحة إلى العلم. جاء من الآفاق من مدينة بيّاش الرّهيب يحمل حلمه وحلم العائلة ليكون شيخاً من شيوخ الجامع الأعظم، حلم كثيراً وحفظ كثيراً وأجيز عامه الأول لكنّ الوطن ناداه...

إن لم يكتب اللهُ لي الشّهادة سأعود... قال لشيخه الذي ودّعه يوم غادر الجامع الأعظم إلى الجبل، لكن "منداس" سبقه إلى شوارع العاصمة وأغلقت باريس ومدريد ولندن مسالك العبور وضُمّ الجامع الأعظم إلى قائمة الاستبدال.

عانق الشابّ سلاحه ولزم مدينة بيّاش الرّهيب وبكى كثيراً حين حمل بيّاش الرّهيب التّلاميذ إلى قمامة المصبّ. هذه أول مرّة يسيل فيه دمعه. مات بين يديه كثير من رفاقه في الجبل، شهد موتهم ولم يبك فالشّهادة لا تُبكي لكنّ دمعه انهمر حين حمل بيّاش الرّهيب التّلاميذ إلى قمامة المصبّ.

علا صوت القطار مؤذناً بقرب المحطة فانتبه الشّيخ ونبّه عبد الرّؤوف... تحسّس عبد الرّؤوف دمعه السّائل مع ذكريات الشّيخ، لقد عاد إليه الدّمع. تحسّسه واهتز، عاد إليه دمعه الحارّ وذهب الدّمع الجافّ. أذهبت ريح بيّاش الرّهيب هيبة الدّولة الجديدة وأسالت ذكريات الشّيخ السّليب دمعه الحارّ الغزير الحنون الرّسام...

بضعة أمتار ويدخل القطار المحطّة، بضعة أمتار قد تستغرق ساعة زمن ما دام القطار يتحرّك خطوة خطوة، أراد عبد الرّؤوف أن يستغلّ ما بقي من مسافة فيتحدّث إلى الشيخ قبل أن يتوقّف القطار فيفترقا...

لم يكن الشّيخ في عجلة من أمره، علّمته التّجارب أن يتريّث، وقد ذكر كيف كان الزّعيم حين أفشل جماعة الدّيوان جهوده مع الأمم المتّحدة لم يقطع حبل الودّ ولم يتسرّع في اتّخاذ قراره رغم أنّه استاء

كثيراً من الهادي حين دعا إلى الهدوء والفرنسيس يخوضون في دماء التّونسيين والمسعدي والبودالي يؤكّدان للزّعيم أنّ الهادي لم يكن وحده حين قال ما قال...

اشتدّت زفرات الشّيخ حين ذكر المسعدي وتذكّر كيف قضى على أحلامه في العلم وقد كان بينهما كرسيّ المعارف...

خشي المسعدي أن يشمله غضب وزير الاستبدال فعجّل باستبدال جماعة الجامع الأعظم. أغلق دونهم الأبواب كلّها، أبواب العودة وأبواب العلم وأبواب العمل... احتقرهم وازدراهم فكتب على ملفاتهم بلغة "كمبون": z non

اشتدّ ردّ المسعدي على نفس الشّيخ أكثر مما اشتدّ عليه نزوله من الجبل، زفراته لا تكفي، وعجبُ عبد الرّؤوف وحده لا يكفي وبكاء أمّه لا يكفي وعويل مدينة بيّاش لا يكفي وقد حضرته صورة شيخ الجامع الأعظم واقفاً بباب وزير المعارف يرقب الإذن بالدّخول فيردّه الوزير وقد ارتفع به كرسيّه الذي يجلس عليه فأوعز إلى مدير ديوانه أن يرد الشّيخ بلغة "كمبون":

dites à ces imbéciles que je n'est pas du temps à perdre

ظنّ وزير الاستبدال أنه قد أرضى الدّولة الجديدة لكنّ الامتحانات خيّبت ظنونه وأغضبت عليه أحفاد "كمبون" فأرسل إلى بعضهم يستشيرهم وجمعهم مع بعض بني جلدته.. أرسل إلى "شارميون" و"لوسيكور" يستشيرهم وأغلق الباب دون جماعة الجامع الأعظم. أخذ بمشورتهم لكنّه أنزل عن كرسيّ المعارف قبل نكبة بيّاش بعام

واحد فانفتح مشغل جديد للدّولة الجديدة اهتمت به ولم تفرغ منه حتى حمل بيّاش الرّهيب "كميون" الجيش الهرم وحمل التلاميذ وترك أوراق الوزير ملطّخة بآلاف التّلاميذ الذين لفظهم برنامجه كما لطّخ موج بيّاش الرّهيب أرواح التّلاميذ الذين قضوا في "كميون" الجيش الهرم.

صمت عبد الرّؤوف وألجمته المفاجأة ولم يرقب أن يسمع ما سمعه عن أديب قرأ له كثيراً، لكنه لم يشكّ فيما قاله الشّيخ الطّاعن في السنّ العائد من استضافة الدّولة الجديدة، فقد كانت ذاكرته طريّة نديّة كأنّها ولدت لتوّها.

لم تبق غير خطوات قليلة ويتوقّف القطار لكنّ الشّيخ وعبد الرّؤوف أوقفاه قبل ذلك حين وردت عليهما رسالة الزّعيم صالح إلى المنجي سليم كأنّها كُتبت لتوّها بعدما نجت من نيران جماعة الاستبدال الذين أرادوا أن يحرقوا ماتبقّى منها فطفقا يقرآنها بصمت...

عبد الرّؤوف والشّيخ الطاعن في السنّ عائدان من سفر طويل واستضافة غير مرغوب فيها والزّعيم يستعدّ لسفر طويل ويرسل إليهما بذاكرته قبل أن يدخل القطار المحطّة... كان الزّعيم يسافر وكانا يرجعان من السفر، يقرآن بقيّة ما وجداه في رسالة الزّعيم التي نجت من جماعة الاستبدال:

رجائي أن تعيدوا النّظر في الموقف وأن تسلكوا الخطوات التي بيّنتُها آنفاً حتى ترجع الثّقة في حركتنا لأنّي اعتزمت السّفر إلى آسيا

في منتصف شهر مارس المقبل حيث أقوم برحلة واسعة النطاق تستغرق شهرين أو أكثر ضغطاً على فرنسا.

رحل الزعيم إلى آسيا وجاء "منداس" بعده بأشهر قليلة ورضي جماعة الدّيوان عرضه فلم تصلهم رسالة صالح إلى المنجي ولم يسمعوا رأيه واستعجلوا الأمر فأغضبوا الزّعيم حتى سافر مرّة أخرى لكنّه لم يعد. ولم تفرغ الدّولة من مشاغلها ولم تصل القنطرة بيّاش الرّهيب، وحده عبد الرّؤوف عاد إلى المدينة رفقة الشّيخ الطّاعن في السنّ تحضنه الذّكرى وبؤرة الحزن... توقّف القطار أخيراً في محطّة مدينة بيّاش الرّهيب.

بيّاش لا يبعد كثيراً عن المحطّة، ريحه تصل عبد الرّؤوف قبل أن يدخل القطار المحطّة. وحين وصل القطار وريح بيّاش، هجمت الذّكرى على عبد الرّؤوف فظلّ في القطار وحده هو والشّيخ كأنّما سُدّ باب القطار في وجهيهما... دقائق ويمضي القطار إلى مدينة المناجم وعليهما أن يتحرّكا قبل ذلك، كانا يتحرّكان ببطء شديد كأنّ النّاس يزدحمون أمام الباب ويسُدّونه أمامهما.

لم يكن في القطار سواهما وبعض الذّكرى. كان الشّيخ أشد جلداً من عبد الرّؤوف، أسرع قليلاً وحرّك يديه كأنّه يرمي بالذّكريات خلفه أو يصدّ قائماً لا يرضاه، نزل من القطار ومشى خطوتين ثم التفت فإذا بعبد الرّؤوف ينزل يتصبّب عرقاً كأنه كان يصارع ثوراً أو جماعة من الناس...

حين رآه ينزل توقف ينتظره ليصطحبه قليلاً خارج المحطة، فلم يكن يجمع بينهما طريق في المدينة. فعبد الرّؤوف يقطن في قرية قبل القنطرة والشّيخ يقطن بعد القنطرة، عبد الرّؤوف يقطن جنوباً والشّيخ يقطن شمالاً لكنّ القنطرة تجمع بينهما في الذّكريات وتفرّق بينهما في المكان. انتظره ليصحبه قليلاً خارج المحطّة لعلّ شيئاً بعد ذلك يقع لكنّ عبد الرّؤوف توقّف ونظر إلى الشّيخ نظرة غريبة تسيل شكّاً مملوء حقداً.

نظر إلى الشّيخ ولم يتحرّك وأشار إليه الشّيخ يستعجله لكنّه لم يهتمّ لإشارته وظلّ واقفاً في مكانه كأنّه لصق بالمكان.. مازال ينظر إلى الشّيخ نظرته الغريبة التي جاءته فجأة حين نزل من القطار وازدحمت أمامه الذّكريات.

لم يشكّ الشيخ أن شيئاً غيّر عبد الرّؤوف تجاهه فتحامل على نفسه ومشى خطوات أثقلها السنّ وقرى الدّولة الجديدة. عاد حيث يقف عبد الرّؤوف يستعجله ويستفسره، وحين بلغ المكان سقط مغشيّاً عليه... كان سؤال عبد الرّؤوف له أكبر من قرى الدّولة الجديدة....

أدرك عبد الرّؤوف أنه تسرّع حين سأل الشيخ سؤاله الغريب المفاجئ الذي حلّ عليه قبل نزوله من القطار وحلّ على الشّيخ كالصاعقة فأسقطه مغشيّاً عليه...

تجمّع من كان في المحطّة حول الشّيخ وأيقظوه من سقطته وأسنده عبد الرّؤوف إلى كتفه ومشى به قليلاً وتبعه الشّيخ كأنّهما يرغبان في الانفصال، كلّ ينظر إلى صاحبه من طرف خفيّ.

كانت نظرة الشّيخ مملوءة عتاباً ولوماً ودمعاً كثيراً لم ينزل وجرحاً أعمق يكاد يتلفه، وكانت نظرة عبد الرّؤوف تحمل شكّاً وشفقة وخشية....

سارا قليلاً وغلب الحياء والخجل على عبد الرّؤوف وأدرك أن الشّيخ لم يكن من الجماعة الذين قصدهم بسؤاله. لقد تسرّع حين سأل الشّيخ فطعنه طعنة أشدّ من نزول الجبل الذي فرضته عليهم الدّولة الجديدة...

استسمح عبد الرّؤوف الشّيخ عذراً فقد فاجأه السّؤال كما فاجأ الشّيخ وذكّرته مدينة بيّاش الرّهيب أمراً فسأل... لم يكن أمامه بدّ من السّؤال، فمدينة بيّاش الرّهيب كانت موقعاً للسّؤال والشّيخ منها والأمر عند عبد الرّؤوف غير واضح ولا بيّن، لم يشأ عبد الرّؤوف أن يفوّت الفرصة عنه فلم يراع شعور الشّيخ وسأله....

هل كنت ممن طارد قوافل السّلاح الذّاهبة إلى الجزائر؟

أفاق الشّيخ وتفهّم قصد عبد الرّؤوف وقبل عذره وحدّثه عن سؤاله.. ثم أسرّ له حديثاً تبسّم منه عبد الرّؤوف.

ابنتي جزائرية إن كنت ترغب في الزّواج.. قال الشّيخ

لم يكن عبد الرّؤوف يرغب في زواج آخر فله زوجة يحبّها وأطفال لكنّ الأمر شدّ انتباهه وأعجبه فتبسّم، هذا الشّيخ الطّاعن في السنّ العائد من استضافة الدّولة الجديدة بعد أن نزعت سلاحه الذي عانقه طويلاً تزوّج من جزائرية أنجبت بنتا يعرضها مازحاً على عبد الرّؤوف للزّواج...

يعلم الشّيخ أن عبد الرّؤوف متزوّج وله أبناء لكنّه مازحه بعرض الزّواج من ابنته حتى يحكي له قصّته مع قوافل ثوّار الجزائر الذين كانت ترصدهم عصابات الدّولة الجديدة وتفتكّ سلاحهم وتسلّمهم إلى الفرنسيس...

كانوا ثلاثة رجال وفتاة لم تبلغ العشرين، ابنة قائد المجموعة ماتت أمّها ولم تتجاوز العاشرة من عمرها، حملها أبوها إلى معاقل الثوّار في الجبل. لم يستطع أن يهتمّ بها في بيتهم الواقع وسط المدينة ولم يرض أن يتركها وحدها وينصرف إلى الجبل.

أحبّ الجبل وأحبّ ابنته وأحبّ أمّها من قبلُ ولكنّه يحبّ الجزائر أكثر من كلّ شيء. لم يجد غير حملها معه إلى الجبل في موقعه مع الثوّار.

عشر سنوات أو أقلّ قضتها في الجبل يهتمّ بها أبوها ورفاقه في الثّورة ويتركها حين يعزم على مهاجمة الفرنسيس. يتركها فيحفظها رفاقه الثوّار ويعود إليها يحدّثها ليلة أو بعض ليلة حتى أُشرب في قلبها حبّ الثورة والجزائر.

حين قاربت العشرين كانت تونس قد اتفقت مع "منداس" وأرضى الاتّفاق جماعة الدّيوان ورفضه صالح. الفرنسيون لم يغادروا الجزائر ولم يفكّروا في مفاوضتهم.

تغير الأمر وجاءت الدّولة الجديدة وفرح الثّوّار في الجزائر بذلك وظنّوا أنهم وجدوا ملاذا وملجأ لكنّ الدّولة أنزلت الرّجال من الجبل وكلّفتهم بحراسته من الصّاعدين إليه والعائدين عبره إلى الجزائر...

لم تكن الفتاة تعلم بما حصل في تونس، وأبوها لم يشكَ في الأمر ولا رفاقه...

كانوا ثلاثة رجال وكانت معهم... كلّفهم الثّوّار بجلب الذّخيرة والسّلاح من مدينة بيّاش، نفذت ذخيرتهم وقلّ زادهم في الجزائر فأرسلوا ثلاثتهم إلى مدينة بيّاش وأرسلوها معهم فلم يرض أبوها أن يتركها هناك هذه المرّة كأنه كان يدرك أن رفقته لها ستكون الأخيرة...

لم يمانع الثّوّار واستعدّ الجماعة للسّفر، مدينتهم ملاصقة لبعض قرى مدينة بيّاش الرّهيب والسّلاح هناك في المدينة اشتراه الثّوّار واستأمنوا عليه بعض من عرفوه في الجبل حتى يتدبّروا أمر إخراجه إلى الجزائر وقد اشتدّت الحراسة بعد ما جاءت الدّولة الجديدة.

دخل الرّجال الثّلاثة إلى مدينة بيّاش، وكانت هي معهم ولم يتفطّن حرّاس الجبل إلى دخولهم غير أنّ بعض أخبارهم وصلت إليهم فطفقوا يبحثون عنهم...

كان الشّيخ الطّاعن في السنّ العائد من استضافة الدّولة الجديدة يومها شاباً انقطع عن التّعلم بالجامع الأعظم والتحق بالجبل يقضي ليله فيه وبعض نهاره وينزل أحياناً إلى شوارع المدينة يتحسّس الأخبار ويزوّد بها الثّوّار ويأتيهم بما يحتاجون.

علم الثّوّار بخبر الثّلاثة فأرسلوا الشّابّ واثنين آخرين لحماية الجماعة وحماية الرّجل الذّي خبّأ الذخيرة عنده..

تعرّف الجماعة إلى بعضهم ولبثوا أياماً عديدة يتحينون الفرصة لنقل السلاح إلى الجزائر فقد كانت الحراسة على أشدّها والدّولة الجديدة أرادت أن تبسط سيطرتها وتبيّن حسن نيّتها للفرنسيس الذين مازالوا يمسكون بدواليب الأمن بعد اتّفاق الحبيب و"منداس".

نشرت الدّولة الجديدة العسس والعيون وشدّدت الحراسة في داخل المدن والقرى وكوّنت العصابات على تخوم الجبال المحيطة بالمدن وكان لـ"عرباطة" جبل مدينة بيّاش نصيبه منها. أرسلوا إليه العصابات ولم يرسلوا إلى بيّاش القنطرة، نال "عرباطة" نصيبه من العصابات ومازال بيّاش ينتظر فراغ الدولة من مشاغلها.

مازال لدى الدولة الجديدة الكثير من المشاغل والوقت يحاصرها كما يحاصر جماعة الثوار في مدينة عرباطة. كان عليهم الإسراع بنقل الذخيرة الى الجزائر فقد بدأت تنفد وثوار الجزائر يرقبونها على أحر من الجمر. مازال عندهم ما يكفي صبر يومين، ولو هاجم الفرنسيس بعدها ما وجدوا ما يواجهونهم به.

كان أبوها ومن معه يدركون ما يواجه إخوانهم في الجزائر لكنهم يدركون أن الدولة الجديدة أشد حرصاً على الايقاع بهم فلم يعجلوا، انتظروا يرقبون غفلة من الدولة وقد كانت...

في الليل تنام العصابات فتنفتح أزقّة المدينة لكلّ العابرين والخارجين منها إلى الجبال. اضطّر لثوّار "عرباطة" أن يتّفقوا مع ثوّار الجزائر الذين جاؤوا لحمل الذّخيرة والسّلاح على أن يرحل بعضهم وينتظر الباقون حتى تنام عيون الدّولة عنهم.

قد ينفتح للدّولة الجديدة مشغل آخر يلهيها عنهم كما ألهاها الزّعيم عن بعث القنطرة إلى بيّاش الرّهيب... تبادلوا الرأي وأجمعوا أن يرحل الرّجل وابنته يصحبهما ثالث ويبقى رفيقاه في مدينة بياش يتحينان غفلة من العسس، فالغرباء يعرفون بيسر شديد والعيون منفتحة دائماً، لكنّ الرّجل لم يرضه ما اتفقوا عليه، كان يحرص أن يصل السلاح إلى ثوّار الجزائر أكثر من حرصه على سلامة ابنته فلم يرض أن تصحبه ويترك مرافقيه... فضّل أن تبقى هي في مدينة "عرباطة"، لن يخشى عليها الغربة والفراق، سيتركها بين أهلها ويوصل الذّخيرة إلى الرّجال المنتظرين الواقفين أبداً.

كانت الطريق قبل اليوم سالكة سهلة مطمئنّة ينتقل خلالها ثوّار الجزائر وثوّار تونس كالمنتقل بين شوارع مدينة ألفها وأمّنته فلا يخشى غدراً..

وحين جاءت الدّولة الجديدة صار الطريق شوكاً وعيوناً وخلا إلاّ من متسلّل خُفية...

نزل الجماعة عند رأيه، وبدا لهم أن يُنزلوا الفتاة بينهم حتى يرجع إليها أبوها بعد أن يوصل الذّخيرة والسلاح إلى رفاقه في الجزائر. كان يحبّ ابنته كثيراً لكنّه كتم عنها وأسال دمع قلبه ولم تبك عيناه، فلم يشأ أن يضعف أمامها حتى لا تشعر بالغربة بين أهل "عرباطة". تظاهر بالقوة وبكى خفية فأدار ظهره حتى لا تراه، وشعرت به فكتمت ونزلت عند رأيه الذي أصر عليه وبداخله شيء ما لا يدركه يحدّثه أنها المرّة الأخيرة التي يرى فيها ابنته. ستكون

نهايته أو نهايتها لا يدري لكنّ شيئاً ما بداخله يقوّي شعوره بالفراق..

سيفارقها الآن ويتركها في مدينة "عرباطة" ويذرف دمعه في الطريق. إن أراد أن يذرف دمعاً فالطريق أمامه طويل جافّ و"بياش" لم يحمل هذا العام. سيحتاج هو رفاقه إلى بعض ما يبلّل الطريق ليُلين لهم جفافه.. سيبكي طويلاً لفراق ابنته حتى يرتاح قلبه ويبلّل الطريق لرفاقه..

عاطفة الأبوّة حرّكت فيه الكثير من يبوسة أورثها فيه الجبل والسّلاح وموت زوجته ومذابح الفرنسيس الممتدّة على طول الجزائر. وأراد أن يرحل مطمئنّاً هادئاً لا يزعج طريقه سؤال ولا ذكرى، تلفّت حوله.. كان في البيت هو ورفيقاه ورجال الزّعيم والشّابّ الذي صار شيخاً طاعناً في السنّ حين استضافته الدّولة الجديدة لتنزع عنه سلاحه.. نظر إليهم جميعاً وقد كان يعرفهم ويعرف الشّابّ أكثر منهم، إذ كان يأتيهم إلى الجزائر قبل أن تصير الطّريق ذا شوك.

لم يكن أمامه غير تزويج ابنته فاختار لها من الجماعة من رآه كفؤا لها يقبل بها ولا يهينها ويحفظها بعد رحيل أبيها إلى الجزائر وربّما يرحل رحيلاً كبيراً لا عودة بعده.

جذب الرّجل الشّابّ إلى ناحية البيت وأسرّ إليه حديثاً تبسّم له عبد الرّؤوف حين حدّثه عنه وقد التقاه في القطار عائداً من استضافة الدّولة الجديدة.

فجاة أمسك عبد الرّؤوف بسمته وقد رأى دمع الشّيخ الطّاعن في السنّ العائد من استضافة الدّولة الجديدة يسرع في الهطول، ظنّه يستعدّ للرّحيل الكبير كصهره وتردّد في سؤاله لكنّ الشّيخ لم ينتظره حتى يسأله وكشف له سرّ دمعه...

لقد ماتت، لحقت بأبيها بعد ثلاث سنوات من رحيله الكبير. لقد كان الخوف يتسلّل إليها رويداً رويداً، تعوّدت حياة الجبل من قبل ولم تتذمر بعد زواجي منها وحين مات أبوها بحثت عن حضن تلجأ إليه وتبثّ إليه شكواها وكنت أنا ذاك الحضن لكنّ الجبل كان يناديني وكانت هي تدفعني إليه حيناً وتروادني نفسي حيناً آخر على البقاء بقربها.

لم أستطع أن أحملها معي وما قدرت على البقاء معها في البيت ولم ترض لي القعود واستسلمت للوحدة والحزن.

مات أبوها وقد ودّعته وداعاً صغيراً لم تظنّ معه أنه الوداع الأخير، لم تشبع من حضنه الحنون وتذكر سهره معها في الجبل يقيها برده وسوامه فتبكي...

حين تذكر ملاعبته لها وممازحته إياها وقت فراغه في الجبل رغم تربّص العدوّ بهم كانت تبكي وتترك الحزن يتسلّل اليها حتى تمكّن منها..

كنت أشعر أن الحزن يكاد يهلكها لكنّها كانت تعاندني، ترفض قولي وتدفعني إلى الجبل حتى لحقت بأبيها حزينة صامتة عظيمة...

ودّعتني يوم لحقت به، كنت قد عدت لتوّي من الجبل وكانت ممدّدة على الحصير في زاوية الغرفة تلاعب شعر ابنتها، ابتسمت حين رأتني وأمسكت بيدي توصيني بابنتها.. كانت ابنتي أيضاً لكنّ لحظة الموت اشتدّت عليها فظنّت أنها هي وحدها المسؤولة عن الصغيرة. ذكّرتها لحظة الموت بأبيها حين غادر مدينة "عرباطة" وأوصاني بها خيراً وزوّجنيها. كانت آخر وصيّتها أن أدفنها هناك في الجزائر حيث يرقد أبوها.. لكنّني لم أفعل فقد شغلني الجبل ومنعتني الدّولة الجديدة.

كذلك الزّعيم... قال عبد الرّؤوف للشّيخ.

ثلاثون سنة والزّعيم يرقد في قبر غريب عن أرضه بعيداً عنها ينتظر حتّى تفرغ الدّولة الجديدة من مشاغلها لتأذن لجثّته بالعودة إلى أرضه التي أحب.

لم تنته الدّولة من مشاغلها لكنّها انتبهت بعد ثلاثين سنة إلى الزّعيم يرقد في قبر غريب بعيد فأرسلت تستدعيه...

وصلت دعوة الدّولة إلى منفى الزّعيم، ولم يكن الزّعيم حاضراً ليستلم الدعوة فقد كان راقداً منذ ثلاثين سنة في مقبرة بمنفاه.

تسلّم حارس المقبرة الدّعوة ببرود شديد فقد كان صغيراً حين غدر الثّلاثة بالزّعيم وقتلوه، لا يعرف عنه شيئاً، قيل له إن زعيماً يرقد هنا فعجب ولم يهتمّ...

لكنّ صوفيّة احتضنت الدّعوة وغمرتها بدموعها فارتسمت على ورق الدّعوة صورة الزّعيم ملفوفاً بالراية الحمراء يبرز من خلالها

قميص المحاماة الذي ارتداه بعد انهاء دراسته العليا في فرنسا، يمدّ يده من تحت الرّاية ويرفعها إلى أعلى ماسكاً بطرف الراية يقرّبها إلى فمه ويقبلها فينهال عليه تراب قديم عتيق ريحه طيّبة يمرغ فيه الزّعيم كلّ جسمه فيغطّيه إلا مواقع الرّصاصات التي أطلقها الثّلاثة الذين لحقوا به إلى ألمانيا واغتالوه.

قرّر الحارس أخيراً أن يفتح باب المقبرة للزّعيم حتى يستجيب لدعوة الدّولة الجديدة بعد ثلاثين سنة من مرقده في منفاه.. لكنّ الزّعيم كان منشغلاً يقبّل الرّاية الحمراء التي تلفّ جسده كلّه وينهمر عليه ترابها العتيق فلم يسمع خطو حارس المقبرة يسير إليه بدعوة الدّولة.

لم يسمع الزّعيم دعوة الدّولة مثلما لم تسمع هي دعوة صوفيّة من قبلُ حين رجتها أن تنقل الزّعيم إلى الأرض التي أحب لكنّ الدّولة الجديدة قالت إنها لم تنظّف الأرض بعدُ من الألغام وتخشى على جسد الزّعيم منها.

الأرض ما زالت طريّة نديّة تتشقّق بسرعة والدّولة منشغلة بإكمال وحدة الأرض ووحدة من عليها أمّا الزّعيم فيمكنه الانتظار قليلاً...

قليل الدّولة طال، وصوفيّة أتعبها وقوف الزّعيم ميّتاً ينتظر فأراحته بعض الوقت لعلّ الدّولة الجديدة تسرع بحمله والتّخفيف عنها لكنّ الدّولة أرسلت من يشتري باقات الزّهور لتعدّ لاستقبال الزّعيم..

لم يرجع من أرسلته الدّولة الجديدة لاقتناء الزّهور وأرسل إليهم أنه جلس يتعهّدها حتّى تستوي على سوقها فيأتيهم بها، فقد مضى على المدينة عام جفاف لم ينبت معه زهر ولا ورد...

ظلّ رسول الدّولة الجديدة إلى الزّهور يتعهّدها وظلّ الزّعيم ينتظر حتى مرّت ثلاثون عاماً. بعدها استوت الزّهور على سوقها وبدا للدّولة الجديدة أن تدعو الزّعيم إليها وتحتفل بعودته ميّتاً فتكرمه بأكاليل مستوردة من زهور مختلفة...

قال الصّغير لأخيه عبد الرّؤوف: كيف رضي الزّعيم دعوتهم وهم الذين سيستقبلونه ويحثون عليه التّراب مرّة أخرى.

قال عبد الرّؤوف: أشفق الزّعيم على صوفيّة إن هو رفض الدّعوة لكنّ نفسه لم ترتح لها، خشي إن عاد أن يلقى جماعة الدّيوان الذين أخرجوه من أرضه فمات في المنفى ورقد فيه ثلاثين عاماً فيحثون عليه تراباً لا يرضاه.

قال أستاذ التّاريخ الواقف بين الأخوين على سكّة الحديد: قد يكون تراباً من أثر "مِنداس" أو زهورا نبتت في هذا التّراب.

قال عبد الرّؤوف: استكثر الزّعيم من تراب الرّاية الحمراء حتى لا يصله تراب من أثر "منداس" تحثوه عليه جماعة الدّيوان فلا يجد من يرفعه عنه...

قال الصّغير: لكنّه لم ير ما في أيديهم؟

قال أستاذ التاريخ: وصلته الدّعوة يوم اسودّت شوارع المدينة، لم يصلها بعدُ لكنّه رأى شوارعها مطليّة بطلاء أسود في الصفحة الأولى

للجريدة التّي كانت تحملها صوفيّة بين يديها تحاول أن تخفيها عنه حتى لا تزيد من خشيته، لكنّ الطّلاء الأسود غلب على الجريدة وأعجز صوفيّة فشعر به الزّعيم....

اسودّت شوارع المدينة وانفتح مشغل جديد للدّولة فأغلقت الشواطئ والبحار ورافقت النّاس في مداخل المدينة ودعت الزّعيم للعودة حتى يكون شاهداً على سواد آخر..

تراب من أثر "منداس"، وصيف حار وعطلة مؤجّلة وجريدة مطليّة بالسّواد الممنوع في خزائن الدّولة الجديدة، وصوفيّة تحتضن الدّعوة وتبكي والزّعيم مشفق عليها وعبد الرّؤوف لن يحضر لاستقبال الزّعيم والشّيخ الطّاعن في السن يقعده الكبر وطول المسافة بين مدينة بيّاش الرّهيب وبين العاصمة ولم يعد قادراً على قبول ضيافة الدّولة الجديدة فقد منع عليه الطبيب أنواعاً كثيرة من الطّعام لا تلائم سنّه. وفي مبيت الدّولة لا يستطيع أن يلتزم أوامر الطبيب فهم لا يقدّمون إلا ما منعه عنه. منع الطبيب عنه الإجهاد ونصحه أن ينام باكراً وحبّب إليه قلّة الطّعام في الليل، لكنّهم في المبيت يسهرونه إلى ساعات الفجر الأولى ويمنعون عنه النوم صباحاً ويتخمونه بطعام دسم أوّل اللّيل ونصفه أو آخره... لم يعد الشّيخ قادراً على قبول هذه الضيافة فاعتذر للزّعيم ولم يره.

لم تدم الرّحلة طويلاً حتى كانت الطّائرة تحطّ على أرض المطار القديم الجديد وقد اختلفت وجوه المستقبلين أمام الزّعيم لكنّهم كانوا كلهم من جماعة الديوان ووارثيه. كان الوقت ليلاً ولا أحد في المطار

يصفّق لعودة الزّعيم.. ابنه لطفي جاء من أمريكا ليستقبل أباه ويرجع فلم يعد له في هذه الأرض ما يشغله وقد هاجر منها أبوه من قبل.. حضر جميع العائلة وغاب جميع النّاس وعبد الرّؤوف والشّيخ فرفع جماعة الدّيوان موكب الزّعيم من أرض المطار سريعاً وانتقلوا إلى الديوان. لم يلبث الموكب في المطار إلاّ قليلاً، لم يتركوا للزّعيم وقتاً للذّكرى ولا للسّؤال أو السّلام.. نزل الزّعيم من الطّائرة فنقلوه إلى الدّيوان واستداروا ساهرين...

سهروا ليلهم يتحدّثون والزّعيم صامت لم يتكلّم، لا يشاركهم الحديث، منزو في ناحية الدّيوان يستمع إلى حديثهم، لم يذهبوا به إلى بيته ونقلوه إلى حيث طردوه من قبل...

تحدّثوا عن كلّ شيء و أوجزوا الحديث عن مناقب الزّعيم.

غداً يوم الجمعة، قالت صوفيّة في نفسها تحدّثها عن الناس الذين سيشهدون موكب الزّعيم بعد الصّلاة ونسيت أن مشغلاً آخر انفتح للدّولة الجديدة سمّاه عبد الرّؤوف النّكبة الرّابعة وقد مسّت أخاه الصغير. وفي النّكبة الرّابعة كلّ شيء مغلق، ولا بأس بتأجيل الصّلاة في الجمعة الأولى من النّكبة الرابعة حتي يبين الطريق. فالطريق غير سالكة والنّكبة الرابعة بدأت والدّولة خائفة والجمعة الأولى يمكن أن تنتظر إلى الجمعة الثانية....

طال ليل الجماعة حتّى كان صباح الجمعة فشكا كثير منهم قلّة النّوم والانصراف إلى العمل فالدّولة الجديدة لا تنتظر والمشيّعون

ينتظرون والجنازة فرض كفاية وجماعة الدّيوان وحدهم يكفون الجميع...

في صباح الجمعة الأولى من النّكبة الرابعة التي امتدت إلى الجمعة الثانية خرج الجماعة مسرعين يحملون الزّعيم كما أُمروا صامتين يفكّرون ويعجلون حتى لا يفوتهم وقت العمل في المكاتب ولا يدركهم وقت الصلاة ولا ينتبه المشيّعون....

يتسلّل عبد الرّؤوف إلى المقبرة ليلاً حين يغفل الحارس عن المتسلّلين ويجلس بين يدي الزّعيم، ينظر إلى الحجر فوق قبر الزّعيم والتّراب تحت الحجر، يعجب ويسأل نفسه: أين كان كلُّ هذا الحجر والتراب حين جاء بيّاش الرّهيب يحمل "كميون" الجيش الهرم والتّلاميذ؟

جلس بين يدي الزّعيم وقد أحضر معه النّكبات كلّها الأولى والثّانية والثّالثة، أما الرّابعة فقد سبقته إلى المقبرة فحاصرتها ودفعته إلى التّسلّل...

اقترب عبد الرّؤوف من القبر حتى كاد يلتصق به وسلّم على الزّعيم دون أن يجهر وعرّف بنفسه ليطمئن الزّعيم فلا يظنّه من مراقبي تراب القبر الذين يزورونه ليل نهار حتى لا يُستبدل تراب "منداس" بتراب آخر غير مصرّح به ولا مسجّل في دواوين الدّولة الجديدة... عرّف بنفسه كأن لم يتحدّث عنها من قبل وشجّعه صمت الزّعيم فلم يسكت، أطنب في الحديث كأنّه يفرغ نفسه من حديث ملأ نفسه منذ خمسين سنة.

كانت المقبرة هادئة ساكنة والشّوارع خالية مطلية بالسّواد والنّكبة الرابعة فوق البيوت وفي مداخل المدينة جائعة تلجم الأفواه، وعبد الرّؤوف جالس بين يدي الزّعيم يتحدّث ولا يسكت. يلقي معاذيره إلى القبور الصّامتة إذ لم يستطع أن يجنّب أخاه الصّغير سؤال الدّولة الجديدة وغضبها حين أحلت بهم النّكبة الرّابعة ولم يجد غير التّسلّل إلى قبر الزّعيم على حين غفلة من حارس المقبرة يُقرئه السّلام ويحكي له أحاديثه الطويلة التي لم تنته..

قارب الوقتُ الفجر، وخشي عبد الرّؤوف طلوع النّهار وانتباه العسس فمرّر يده فوق تراب القبر وألقى تحيته الأخيرة وهمّ بالانصراف...

حين مرّر يده فوق القبر كان الشّعر ينكشف له فمشى ببطء يخرج من المقبرة ويردّد ما كتب على قبر الزّعيم...

صالح بن يوسف

نفحات الخلود

على قبر الشّهيد الزّعيم صالح بن يوسف

الله أكبر كم في الحق من عجب   يمحو الأباطيل حيناً أو على حقب

والنّور يرجع للظّلماء يكشفها   ويُشرق اليُسر بعد العسر والحجب

كـــم ليلـــة أقمارهـــا حُجبـــت ثم انجلت عن بديع البدر والشّهب

كم ظـالم ظـالم راجـت مذاهبـه ثم انجلت عن مصير القهر والعطب

من كان يبني بلا ساس ولا دُعم فإنما يبـتني بيتـاً مـن الخـشب

من ساس دولته من غير عدل فقد أقـــام قنبلـــة موقوتـــة اللّهـــب

تفجّـرت قبـل أن تبـدو معالمهـا وهل يُقـام بنـاء الجـور والغلـب

من يحمل الحزن يجني الحقد منتصفاً والدّهر يبقـى وضـيع الاسـم واللقـب

أمّا الشّهيد الذي شاعت مناقبـه ومات غدراً فلهو أشرف النسب

ما مات من يصنع التّاريخ مكرمـة من يكتب المجد في سفر من الـذّهب

من عايش الهول إثر الهول ممتحناً من خاض أمواجه بحراً من اللّهـب

من يحمل الرّاية الحمـراء زاهيـة حتى تراهـا عيانـا قمّـة الرّتـب

من كان يحمل للخضراء رسـالتها من كان يشقى لتحيا أمّة العـرب

إبراهيم عبد القادر

الخيط الثاني

ضباط الظلام

تصدير

"إذا اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة"

النفري

تسلّل أحمد إلى غرفة جدّه المغلقة منذ زمن بعيد...

لا يعرف أحمد متى بدأ هذا الزمن بالتّحديد لكنّه يعلم أنّه كان يوم سال الدّمُ من رأس جدّه، يومها أغْلقت الغرفة ولم تُفتح.

مرّ زمن منذ سال الدّمُ من رأس الجدّ.

كان لا يفتح الغرفة إلاّ قليلاً من الليل حين تهجع العائلة كلها.

يدخل الجدّ الغرفة ويمكث فيها فترة من اللّيل تكفيه لأُسبوع قادم لا يدخلها فيه. لا يريد أن يكثر التردُّد على الغرفة فتنتبه إليه العائلة.

مرة في الأسبوع تكفيه ليأخذ ما يحتاجه منها ولا ينتبه إليه أحد، فلا أحد في العائلة يعرف عن الغرفة سوى أنها غرفة الجدّ يمسك بمفاتيحها ولا يحدّث عنها أحداً ويرتاح فيها وقتاً لا يفطن إليه أحد من العائلة ومن النّاس.

حاولت العائلة، زوجته وابنه أبو أحمد والبقيّة أن يعرفوا ما في الغرفة فعجزوا. وحاولوا أن يعرفوا وقت دخول الجدّ إليها فأعياهم ذلك.

كان الجدّ يُمسك بالمفاتيح وبالوقت حتى سال الدّمُ من رأسه فرحل ولم يرجع، وأُغلقت بعدها الغرفة فلم تفتح، ونسي أبو أحمد أين خبّأ المفاتيح، فبعد رحيل الجدّ لم يعد يهتمّ للغرفة. أخذ المفاتيح وخبّأها ثم نسي أو تناسى أين خبّأها كأنّه يحترم رغبة الجدّ في حفظ سرّ الغرفة.

لم يوصه الجدّ بالغرفة، فقد كان الجدّ يخشى أن تفتح الوصيّة أبواب السّؤال في ذهن ابنه فيحرص على كشف ما لم يشأ كشفه، ولم يكن الجدّ ينتظر أن يسيل من رأسه الدّمُ بهذه السّرعة فيكلّف ابنه بأمر الغرفة...

كان الجدّ مطمئنّاً لأنّه يُمسك بالمفاتيح وبالوقت حتى سال الدّمُ من رأسه فرحل ولم يرجع ولم يوص ابنه بها.

أخذ ابنه المفاتيح وخبّأها ثم عمد أن ينسى مكانها حتى لا تُحرق رغبة جدّه في حفظ سرّها... هكذا كان أبو أحمد... لكنّ أحمد الصّغير لم يهتمّ لرأي أبيه حين عثر على المفاتيح فجأة.

أخذته الرّغبة في معرفة ما في الغرفة وقد كان يراها مغلقة طول طفولته. حبا أمام بابها وحاول أن يستند إليه حين بدأ أول خطواته ولم ينهره الجدّ لكنّه لم يدخلها ولم يكشف سرّها، فقد كان الجد يُمسك بالمفاتيح ويُمسك بالوقت...

يسمع أحمد أباه يحدّثه عن احترام رغبة الجدّ في حفظ سرّ الغرفة فاحترم قول أبيه ومضى. لم يكن أمر الغرفة يشغله ولا يهتمّ به حتى عثر على المفاتيح فجأة وتذكر حديث أبيه عن رغبة الجدّ.

تردّد أحمد... أكنّ الاحترام لأبيه ولم يأبه لرأيه، فقد غلبت عليه رغبة المعرفة حتى تسلّل إلى الغرفة ودخلها...

في الغرفة أشياء غريبة، مرتّبة محفوظة كأن لم يمسسها أحد من قبل ولم يفهم أحمد كيف كان الجدّ يأخذ حاجته منها ويعيد ترتيبها، لكنه أكبر في الجدّ سعة باله ودقّة ترتيبه للأشياء رغم غرابتها...

أصبح الجدّ الآن، يجمع المفاتيح والوقت ودقّة الترتيب... وأصبح أحمد داخل الغرفة يعجب لترتيب أشياء لا تُرتّب، غريبة عجيبة...

كتاب أبيض يسيل منه الدّمُ غزيراً، لم يجفّ بعدُ، يخرج من حذاء أسود كالظّلام معلّقة فيه رؤوس كثيرة. يمرّ بالكتاب الأبيض ثم يعود إليه، ذكريات مرصّفة بعضها فوق بعض، مُرتّبة بحسب زمن ذاكرتها، وبطاقات هويّة معلّقة في سماء الغرفة تجهد حتى لا تسقط خيّل لأحمد أنها مشدودة بخيوط رقيقة شفافة وعجب حين اقترب منها ولم يجد الخيوط..

في الغرفة أيضاً كرسي مقلوب موضوع على جماجم قديمة وفوقه رقبة بين بياض وحمرة ذات يد واحدة تمتدّ لآخر الغرفة ثم تنقبض كأن لم تكن، وأنين من هنا وهناك، وحديث همس وجهر في زوايا الغرفة كلّها وفي وسطها وقرب الباب وأحمد يعجب كيف لا تسمع

العائلة هذه الجلبة... اقترب من الباب، تحسّسه عسى أن يفهم سرّ عزله للجلبة عن العائلة، لم يجد شيئاً وزاد عجبه فبالباب ثقوب كثيرة متفرقة كأنّ الجرذان أكلت الباب أو تكاد...

ليس في الغرفة جرذان، الغرفة نظيفة مُرتّبة، يتعهّدها الجدّ وقت دخوله إليها ويأخذ منها كفاية أيّامه القادمة ويمسك بالمفاتيح وبالوقت ودقّة التّرتيب ثم يخرج حتّى سال الدّمُ من رأسه ورحل ولم يرجع...

جالت عينا أحمد في الغرفة كلّها، بحث عن شيء ما كان يأخذ منه الجدّ كفاية أيّامه القادمة قبل أن يعود إلى الغرفة مرة أخرى... لم تكن الغرفة مخزن تمر أو زيت أو دقيق، ولا شيء فيها مما يؤكل أو يُقتات به... عجبُ آخر أوقف عيني أحمد ورحل الجدّ عنه يردّد شعرا بلهجة أهل القرية... حاول أحمد أن يدرك الجدّ فيرجعه إلى الرّأس حتى يكفّ الدّمُ عن السّيلان ولا يرحل الجدّ ويفهم أحمد كلمات شعره، لكن يد الرّقبة فوق الكرسيّ المقلوب حالت دونهما تمتدّ فتقسم الغرفة نصفين وتجعل بينهما حاجزاً يعجز أحمد أن يخرقه فيتقهقر إلى الخلف.

تنقبض اليدُ فيرى أحمد الجدّ مرّة أخرى يسيل الدّمُ من رأسه ويرحل عنه ويتمتم بكلمات شعر بلهجة أهل القرية. يعاود أحمد الكرة ويحاول أن يلحق بالجدّ وتعود اليد فتمتدّ وتحول بينه وبين الجدّ حتى تسمّر أحمد في مكانه يلتقط الكلمات من جدّه الذي رحل

ولم يرجع وترك رأسه يسيل منه الدّمُ وأمسك بالمفاتيح وبالوقت ودقّة التّرتيب...

سمع أحمد الكلمات وتبيّنها بوضوح وأدرك أنها هي التي أسالت الدّم من رأس الجدّ أو هكذا زيّن له خياله الصّغير أمر هذه الكلمات، وطفق يتبعها فإذا بالجدّ في حلقة القوم واجما لا يتكلّم، ساهراً معهم كأنّه لا يجالسهم، يرقب مرور الوقت ليغادر الحلقة، يأخذ رشفات الشّاي ويتذوّق طعمها يصبّها في فمه ويُرجع الكأس إلى السّاقي ثم يرحل في وجومه ولا يأبه لضجيج الجماعة في الدكّان يعلو ويسفل. لم يكن ذلك شأنه من قبل، مضى زمن والجدّ يجالس القوم ويسامرهم، يتجاذبون أطراف الحديث لا يقطعه إلا وقع نعال جند الفرنسيس يمرّون بهم يتفقّدون المكان وقد يفضّون سمر الجماعة. يقلبون ماعون الشّاي أحياناً، ويأمرونهم بالانصراف أحياناً أخرى فينصرفون ويعودون من الغد يبدؤون السّمر من حيث انتهوا ليلتهم الفائتة.

وتمضي الأيّام بهم واللّيالي والجدّ يُسامر الجماعة يحدّثهم ويحدّثونه ويُشاركهم لعبهم يقطعه عنهم جند الفرنسيس أحياناً حتى ملأت الغرفة نفسه بسرّها فسكت ولم ينقطع عن حلقة القوم في دكان الحارة...

صار واجما طول السّهر، يجلس ولا يتحدّث، يشرب الشّاي ولا يتذوّق طعمه، يرى اللّعب ولا يشاركه الجماعة ويكون أوّل المنصرفين حين يقدم جند الفرنسيس كأنّه يخشى أن يُكشف سرّه العظيم...

عجب الجماعة له وأعياهم صمتُه وقد عجزوا أن يكشفوا سرّه وأبى أن يحدّثهم ورضوا أن يسامروه على صمته العجيب الغريب المفاجئ حتى كان يوم نطق بالشّعر ولم يفطن...

نطق بالشّعر كأنّ الشّعر فاض به فتخفّف منه وحطّ عن ظهره أثقالاً أتعبه حملها. نطق بالشّعر في حلقة القوم حتى أتمّه ثم انصرف يردّده حتّى وصل بيته وأوى إلى الغرفة ولم ينم:

نحكي على الرّأس المهمومة
مليانة حكايات ومغرومة
حكايات الرّاس قديمه
خلاّت النفس حزينة
وقتاش ترجع أمّيمه
ونغنّي ونفرح بأمّيمه
نحلف ما نحكي كلمة
لو سال دمّي كالدّمعة
كالمطرة والنّهر الجاري
لو سال دمعي ما نبالي
سرّك يا أمّيمة مكنون
صدري مدفون دفينة
سرك يا أمّيمة مكنون
في صدري مدفون دفينة

أتمّ الجدّ ترديد شعره ورحل، أخذ الجماعة عنه الشّعر وردّدوه في الحيّ حتى بلغ أرجاء القرية وأنحاء المدينة وسال الدّمُ من رأس الجدّ فرحل ولم يرجع ولم يفطن أحد إلى أمره.

صار الجدّ كشعره غريباً يمسك بالمفاتيح وبالوقت ودقّة التّرتيب ويغلق الغرفة حتى صار أحمد بداخلها يعجب لترتيب أشياء لا ترتّب، عجيبة غريبة كشأن جدّه الذي سال الدّمُ من رأسه فرحل ولم يرجع...

في الغرفة كتاب أبيض يسيل منه الدّمُ ولا يكفّ، ينبع من حذاء أسود كالظلام، فوق الحذاء رؤوس كثيرة صامتة مستبشرة كأنها ترقب أن تعود إلى الحياة أو ضاحكة وجلة كأنما تخشى أن تنفلت عنها.

وحدها الذّكريات التي جمعتهم بعد أن تفرّقوا والجدّ هيّأ لهم الغرفة قبل أن يسيل الدّمُ من رأسه فيرحل ولا يرجع، وأحمد يدخل الغرفة فيعجب، كلّما عجب اتّسعت رُؤيته وسالت الأسرار على جدران الغرفة تنهمر كالدّم المنساب من الكتاب الأبيض.

يعجب أحمد ويمشي كلما عجب غرق خطوة في الذّكريات المرّصفة في إحدى زوايا الغرفة كأنّما قدّت منها.

اتسعت رؤية أحمد وغرقت خطواته في الغرفة وتبعثرت الذّكريات فوق كتفيه وبين يديه وعلى رأسه ومن أمامه ومن خلفه كأنّ جدّه لم يرتّبها يوما ولم يتعب في جمعها. الآن يفتكّ أحمد الدّقة والتّرتيب

من الجدّ بعدما عثر على المفاتيح فجأة... فلم يبق مع الجدّ إلا الوقت وقد استغرقه في الرّحلة التي لم يعد منها بعد أن سال الدّمُ من رأسه.

لم يهتمَ أحمد للوقت وقد كان في غرفة لم يشأ أن يجعل فيها حدّاً للوقت ولا معنى، غرفة ذكريات وموت وحياة وحديث همس وجهر وأوراق وملفّات وكتب وجماجم، وعجب يزداد ورؤية تتّسع...

شدّه العجب فاتّسعت رؤيته واختلطت فيها لحظات قديمة عتيقة مكنونة بلحظات حاضرة عابرة مكشوفة، يرى آخر الغرفة بين شروق وغروب والشّمس والقمر يتزاحمان على باب الغرفة وقد كان دخلها يوم عثر على المفاتيح فجأة وعلم أنّها أغلقت يوم سال الدّمُ من رأس جدّه فرحل ولم يرجع.

علقت رغبة الجدّ في نفس ابنه أبي أحمد فخشي أن تثور ولم يستعدّ لها ولا يعلم متى تثور فنسي المفاتيح ليحفظ الرّغبة المعلّقة في نفسه دون وصيّة من الجدّ... استغرق الوقت الجدّ في رحلة لم ينتظرها ولم يرجع منها، ولم يهتمّ أحمد للوقت واختلط الوقت على "العربي الصامت" فظنّ أن زبانية جهنّم اقتحمت عليه سجنه وحاسبته حساباً شديداً ثم أذاقته ألوان عذاب لم يعرف قبلها حتى غاب ولم يميّز الوقت والمكان...

كان العربي صامتاً كلقبه واقفاً في الغرفة يشير إلى أحمد بطرفة عينه إلى الحجاب المُسدل وسط الغرفة حيث يقف "المحجوب" ويقعد "البراطلي" عاجزاً عن الحركة من أثر العصا...

كان "المحجوب" يضحك من "الساسي" وقد صار كاسم جدّه أسود لا تعرف ملامحه من فرط العذاب... تغيرت ملامح "الساسي"، انتفخت عيناه حتى غطت وجهه واستوى أنفه مع وجنتيه فلم يتعرف إليه "تميم" وقد كانا قبل اليوم يلتقيان ويتحادثان كثيراً لكنه لم يعرفه وراء الحجاب وقد سبقته عينا أحمد يتطلّع حيث أشار إليه "العربي" بطرفة عينه.

لم يتعرف "تميم" إلى "الساسي" واستطاع أحمد أن يتبين كليهما وقد حجب عنه "صبّاط الظّلام" المعلّق فوق الحجاب رؤية وجهيهما وذهب العذاب بوجه "الساسي" حتى عرفه جماعة "الصّباط" وهم يردّدون أغنية "صليحة" "طيعوا الأسمر" مستهزئين بـ"الساسي".

كان "الصّباط" معلّقاً في "القصبة" تحت جبّة "الشيخ العيّادي" لا يعرف داخله إلا صديقيه "ورق" و"الورداني" وقد ترافقوا ثلاثتهم وتسلّلوا في الظّلام إلى الظّلام في جبّة الشيخ التي تغطّي أبصار المارّة في شوارع "القصبة"... وتغطّي الشّارع المؤدّي إلى الصّباط فلا يضعها حتى يمرّ إلى الصبّاط رفيقاه في العذاب يحملان أجساداً منفوخة معدّة للسّلخ ثم يغلقون الصّباط بحبال متينة قدّت من الحلفاء فلا يتسلّل بعدهم أحد ولا ريح ولا نفس ولا ضوء. ويظلّ "الصّباط" مغلقاً حتى تنتن ريحه ويتعفّن فيطلقون أنوف الأجساد التي جاؤوا بها من قبل لتشمّ العفن والرّيح النتنة يطلقونها للشمّ بعد أن ينزعوا عنها ما كانوا وضعوه عليها حتى يضيّقوا على أصحابها النفس.

ظنّ جماعة "الصّباط" جبّة "العيادي" تحجبهم عن المارّة في شوارع "القصبة" يختفون تحتها ويسحبون معهم أجساداً مختلفة وجماجم متنوعة يدخلون بها إلى الصّباط ولم يفطنوا إلى الجدّ يتتّبع بعينيه ثقباً خفيفاً بدا له في وسط جبّة الشيخ فكشف له ما ظنّه الجماعة مستوراً... ذُهل الجد مما رأى ولم ينطق. تسمّرت عيناه في الثقب فجاءته الصور تترى كلما جاءته صورة نظر إليها وقذف بها إلى غرفته التي رتّبها قبل أن يسيل الدّمُ من رأسه فيرحل ولا يرجع...

كانت الصور ترعاها لجان "المخازنية" و"القومية" و"القيّاد" وقد فتح لهم بورقيبة أبواب الحزب حين أحس بالخوف يسيطر على نفوسهم وترتعد فرائصهم خشية انتقام الدولة الجديدة منهم بعد أن خدموا الفرنسيس طويلاً... تسلّلت الدولة الجديدة إلى نفوسهم الخائفة فأغرتها وأرهبتها ثم أطلقتها فإذا الصور تترى كماء المطر أو الدّم السّائل من الكتاب الأبيض بين يدي أحمد في غرفة الجدّ. انطلقت اللّجان والجدّ ينظر إليهم من ثقب جبّة الشيخ يرقب كيف يرعون الصّور التي انهمرت أمام عينيه فلم يقدر أن يتتبّعها كلّها وطفق يقذف بها إلى الغرفة حتى استوت ورصّفها ورتّبها ثم أغلق دونها الباب قبل أن يسيل الدّمُ من رأسه. كان الجدّ يتبع بعينيه ثقب الجبّة وكانت اللّجان تتّبع النّاس في أزقّة المدينة وفي الأرياف والقرى، تأخذ النّاس بالشبهة وباليقين، تقتل وتدفن وتعذّب وتسجن وقد تحمل البعض إلى جماعة "الصبّاط" ينظرون في أمرهم...

اللّجان في كل مكان، لا يقرؤون ولا يكتبون ولا ينظرون ولا يفقهون. كانوا فقط يسمعون ويأخذون فيضربون أو يقتلون ثم يتسلّلون تحت الجبّة إلى "الصبّاط " يحملون من تحتاج إليهم الدولة الجديدة ممن تعجز عنهم اللّجان... وكان الجدّ ينظر إليهم من ثقب الجبّة ويتبع الصّور تترى يقذف بها إلى غرفته فيرتّبها ويرصّفها ثم يغلق دونها الغرفة...

ينظر الجدّ من ثقب الجبّة التي تغطي شوارع القصبة المؤدّية إلى "الصبّاط" فإذا بصبيّة في ريعان شبابها، جميلة كالورد بريئة كنسائم الفجر، نقية كبراءة الطهر، تمشي مطمئنة أمام البيت تحمل الجفنة تضع فيها طعام الكلب يحرسهم من اللّصوص وأحياناً ينبّههم إلى الضيوف القادمين فيحضرون القرى وتحتجب النّساء ويستعدّ رجال البيت. كانت الصبيّة تحمل الجفنة وتمضي نحو الكلب، تدندن بكلمات خفيفة مهموسة غير مسموعة. يرحل بها خيالها الصّغير بعيداً حيناً وقريباً أحياناً كثيرة فحدود المكان معروفة مسيّجة لا يُسمح للصبية أن تتجاوزها ولا تفتح الحدود أمام خيالها البريء... لم تر من الرجال غير أخيها "الزمّوري"، تحلم بزوج لم تر وجهه بعد وتمضي إلى الكلب لتطعمه فيحرسهم أو ينبّههم إلى الضّيوف. تمضي مطمئنّة لم يخطر ببالها شيء ولم تتوقع شرّا أو سوء يهجم عليها وهي في حمى بيتها وبين أهلها وجيرانها المسالمين الطيّبين. وهناك في مدخل الحوش الكبير كلبها الوفيّ يحرسها من اللّصوص وتحمل إليه طعامه في الجفنة بين يديها الناعمتين البريئتين...

كانت تمضي نحو الكلب فإذا بيديها الهادئتين ترتجفان وترتعشان وإذا بالجفنة التي كانت بينهما تنكسر وتسقط.. تكسّرت الجفنة قبل أن تسقط، ثم سقطت فلم تجد فيها ما يتكسّر... أخذ الرعب الصبيّة فلم تعجب، وعجب أحمد للجفنة تتكسّر قبل أن تسقط فإذا برصاص "لجان الرّعاية" يخرق ظلام الغرفة. تمرّ بين عيني أحمد وقد اتّسعت الرؤية أمامهما، سريعاً تمرّ الرّصاصات وبالكاد نظر إليها أحمد تصيب الجفنة فتكسرها بين يدي الصبية قبل أن تسقط ويتناثر طعام الكلب. لم يكن للكلب شأن مع رصاص "الرعاية"، لكن "الرعاية" شملته وشملت الصبيّة أخت "الزمّوري" وصاحب الكلب الذي ذهب طعامه بعد أن تكسّرت الجفنة. كان "الزموري" يوسفيا ولم تر "لجان الرعاية" التي لا تقرأ ولا تكتب حروفاً مشتركة تجمع بين الإسمين فأطلقت الرّصاص لتفرّق بينهما وترجع "الزموري" إلى عائلته أو ترعب الصبيّة أخته فتغلق دونه حوش "الزمورية" حتى يقطع مع اليوسفية أو يهلك دونها... رأى الجدّ صورة الصبيّة وقد تملّكها الرّعب وطعام الكلب يتناثر أمامها والجفنة يخرقها رصاص "الرّعاية" فتنكسر بين يديها قبل أن تسقط رأى ذلك فرقّ لحالها وهمّ أن يتقدم نحوها ولم يلبث أن تراجع وقذف بالصورة إلى غرفته بعيداً عن جبّة الشيخ وطريق "الصّباط"، فقد اقتحم عليه "زوينخ" ثقب الجبّة مسرعاً حاملاً معه نادي الشعبة الدستورية في مشيخة الشيّاب، قادمة من "حامة قابس" وقد زيّن النادي بزينة جديدة غريبة لم يسبق إليها... كان "زوينخ" كاهية

رئيس الجامعة الدستورية هناك، نصّب نفسه حاكما بين الناس ودعا الجميع للتقاضي بين يديه طوعاً وكرها. هناك في مقر النادي كان النّاس يأتون إليه، منهم من يأتي وحده خوفاً من غضبه عليه، ومنهم من يُحمل إليه كرها. يوقف الجميع بين يديه في المحكمة التي نصب أركانها داخل نادي الشّعبة. يسألهم ولا يسمعهم ثم يرمي بمن رآه غريب الرأي رافضاً للدولة الجديدة، إلى السجن. لم يكن سجن "زوينخ" بعيداً عن محكمته، فلم يتعب في حمل السّجناء إليه. كان هناك في زاوية أخرى من زوايا النّادي في الشّعبة الدستورية. قسّم النّادي قسمين محكمة وسجناً، واتّخذ حرّاساً يأتون إليه بالنّاس كرهاً وخوفاً. يسأل ولا يسمع ثم يأمر بهم إلى سجنه الخاص في نادي الشّعبة... كان يأخذ الناس إلى سجنه الخاص دون إذن من أحد، وحده يأمر ويحكم وأحياناً ينقل بعضهم إلى سجون أخرى تخصّ آخرين تجمع بينهم الدولة الجديدة، فقد كان لكلّ سجنه الخاص به. هناك في "الحامّة" سجنه هو، وهناك في "القصبة" سجن جماعة "الصّباط" المستور بجبّة الشيخ العيّادي وقد تفطّن الجدّ إلى الثّقب في وسطها ينظر من خلاله إلى الصّور تترى ويقذف بها إلى غرفته التي أغلقها يوم سال الدّمُ من رأسه. وبعيداً عن "الصّباط" نصب عمر شاشيته فوق "سيدي بن عيسى" في "بني خلاد".

تعدّدت سجون "الرعاية" وتنوّع رصاصها وعصيّها وجماعاتها. كلّها ترعى وكلّها مسؤولة عن رعاية المخالفين والرّافضين وقت ما تشاء وكيف ما تشاء... عمّت الفوضى وانتشر الخوف في البلاد وقد

استبدلت الدّولة الجديدة حضورها بلجان "الرّعاية" تسير وحدها في الشّوارع تأمر وتنهى بعد أن أرخى لها بورقيبة السّلاسل والحبال حتى كادت تنفلت منه. كان يرخي لها كلّ يوم قليلاً، ولم يعد في يده غير رأس الحبال والسّلاسل بالكاد يشدّ طرفها حتى زاره "المبروك" مغاضباً. جاءه من أقصى الجنوب من "ورغمّة" حمل إليه غضبه وغضب أهلها بعد أن وقفوا في وجه الفرنسيس وظنّوا أن خروجهم أراح النّاس من غمّتهم. جاء "المبروك" يصطحبه "نصر" و"غرس الله" وا""لقاسمي" و"ضو" و"العدواني" و"العاشوري"، جاؤوا من ورغمّة حملوا أنفسهم وغضبهم وغضب أهلهم وجاء معهم "القايد زايد" يبحث عن سلطته أمام لجان "الرعاية" بعد أن أهملوه وفرضوا أمرهم وحكمهم. جاء "القايد" يصحب الوفد الغاضب من "ورغمة" إلى العاصمة... كان الغضب يهزّ الجماعة ويغلي في نفوسهم، وصور التّعذيب وفوضى اللّجان ماثلة أمام عيونهم. أصدقاؤهم الذين رافقوهم في النّضال والكفاح ضد الفرنسيس تحبسهم لجان "الرعاية" وتهين تاريخهم وتدوس كرامتهم وترمي بهم إلى سجونها الخاصّة المنتشرة هنا وهناك، ولا أحد يشفع لهم... لم يقرأ جماعة اللّجان تاريخ هؤلاء فيقبلون شفاعته لهم، والنّاس تملكهم رعب اللّجان فأحجموا.

وحده "المبروك" لم يخش شيئاً وصحب الوفد معه وانطلقوا إلى العاصمة... كان "المبروك" أكثر الناس غضباً وألماً وصورة المجاهد "محمد قرفة" أمامه وقد أخذته اللّجان بعد أن اطمأنّ أن الفرنسيس

غادروا الأرض ويئسوا أن يقيموا فيها وعجزوا أن يقبضوا عليه بعد أن أعياهم بجهاده وكثرة حركته...

صار عدّوهم الأوّل وقد كان يقطع آلاف الأميال من داخل البلاد إلى طرابلس ينقل الأخبار والأوامر وأشياء أخرى. لم يقرأ ولم يكتب لكنّ عزيمته كانت أقوى من جهل لا ذنب له فيه. جهل القراءة والكتابة غير أنه لم يجهل حقّ أرضه عليه فشحذ عزيمته وانطلق إلى طرابلس وحملته عزيمته إلى الجبل سلاحه يقاتل ويقتل ويقوم بأعمال كثيرة وكبيرة حتى صار قائداً لجماعة جيش التحرير في "ورغمّة" من حيث ينطلق "المبروك" اليوم ينقل إلى بورقيبة ما تفعله "لجان الرّعاية" بالمجاهدين... كان "المبروك" غاضباً متألّماً يخفي دمعه الذي يغالبه وهو يرى طلقات النّار ورصاص "الرعاية" يخترق أنف "قرفة" وهو جالس إلى العشاء. لم يسقط ولم تصل اللّقمة إلى فمه، سبقه الرّصاص إلى أنفه فتماسك رغم الألم والجرح. كان شجاعاً جلداً، صلباً تحمّل الألم والجرح وظنّ أن "الرعاية" أسعفته حين حملوه وهو يصارع ألم الرصاص في أنفه، لكنّه انتبه... خطوات قليلة بعدها ألقت "الرعاية" الحبال في يديه والقيود وأحكمت شدّ وثاقه ولم ترع جرحه وألمه وكبر سنّه ولم تقرأ تاريخه... لم تأت "الرعاية" لتسعفه، هي من أطلقت الرّصاص وأفسدت عشاءه وأرعبت أهله كما أرعبت من قبل أخت "الزموري" وقد كسرت الجفنة بين يديها. وجاءت "الرعاية" لـ"قرفة" تحمله إلى هناك مخضّباً بدمه وجرحه وألمه وتاريخه... هناك سجن آخر من سجون "الرعاية" لا يعرف عنه

"قرفة" شيئاً، فهو لم يعرف السّجون من قبل والفرنسيس عجزوا أن يدخلوه السّجن أو يقبضوا عليه. حاولوا فلم يفلحوا واستعانوا بهؤلاء الذين كونوا "لجان الرعاية" بعد رحيل الفرنسيس لكنّهم عجزوا يومها أن يصلوا إليه. وكان بين أهله يحفظونه ويسبقون الفرنسيس والخونة إليه يعلمونه فيغيّر المكان ويساعدونه فيهرب منهم... واليوم كان وحده حين جاء جماعة "الرعاية" إليه بعد أن أرخى لهم "بورقيبة" السّلاسل والحبال، لم يهرب عنه أهله لكنه لم يحتج إليهم، ظنّ نفسه آمناً مطمئناً بعد أن خرج الفرنسيس، خاب ظنّه وحملته "الرعاية" إلى سجنها الخاص... شهر وخمسة وعشرون يوماً تحت الضّرب والعذاب، موثوقاً بالحبال تتناوب عليه لجان "الرعاية" آناء الليل وأطراف النهار. قال "قرفة" لهم بعد أن يئس من شفاعة تاريخه له كما يئس الفرنسيس منه من قبل، قال وزفر زفرة شديدة:

– اكتبوا ما تريدون وأمام الله نتقابل.

كتبوا ما أرادوا، حبكوا القصة وأحكموا نسجها، زادوها وختموا القصّة تحت حبال المشنقة. وضعوا رأس "قرفة" هناك وكتبوا خاتمة القصّة وانفصل الرّأس عن الجسد وحمله الجدّ إلى الغرفة ورتّبه في مكانه وأغلق دونه الغرفة قبل أن يسيل الدّم من رأسه ويرحل إلى حيث رحل "قرفة" ولم يرجع. رحل "قرفة" قبل أن يرحل الجدّ وأسال دمع "المبروك" بعد أن غالبه كثيراً... سال دمع "المبروك" وهو ينتظر الوصول إلى العاصمة مع وفد "ورغمّة" ليلتقي "بورقيبة"

ويحدّثه بما فعل رجال "الرعاية". مازال الطريق إلى العاصمة طويلاً و"المبروك" يتحرّق للوصول وصور كثيرة تزدحم عليه... طال انتظاره كأنّه "المهداوي" ينتظر خروجه إلى المحاكمة وقد لبث عند أصحاب "الرعاية" تسعة أشهر كاملة كأنّهم ينتظرون ولادته...

تسعة أشهر كاملة ظل "المهداوي" موقوفا عند أصحاب "الرعاية" ينتظر ويعذّبون، يصبر وينتظرون لكنّه لم يلد، عانى المخاض وحده ولم يلد. كان مخاضاً عسيراً شديداً ورفض "المهداوي" أن يتعاون مع لجان "الرعاية" حتّى يخرج الجنين وينتهي المخاض.... يئس أصحاب "الرعاية" من "المهداوي" وعجزوا أن يُنهوا مخاضه أو يدفعوه إلى ولادة ما يرفض أن يلده، فعجّلوا وعمدوا إلى شقّ بطنه وأنجبوا جنيناً غريباً...

الجنين محكمة، والمحكمة أعجب من مخاض "المهداوي"... محكمة سريعة مستعجلة عاجلة، أمر "بورقيبة" بكونها فكانت. ساءه مخاض "المهداوي" وأمثاله من الرافضين والمخالفين فأمر بها... علم "بورقيبة" أن "المهداوي" أراد أن يفسد عليه عرض "يوسف وهبي" المسرحي، ويقصيه من مقاعد المسرح البلدي فأعدّ له عرضا مسرحيا على عجل وقد كان ذا خبرة في التّأليف والإخراج. لم يدرس المسرح في معاهده ولا اشتغل به، بل كان ذا قدرة غريبة يستخرجها حين تشتدّ به الأزمات وتحاصره المآزق وينقلب الموقف عليه يغيّره ويتغيّر، يضحك ويبكي ويبكي ويضحك ويضرب على صدره. يمشي على الرّكح رافعاً رأسه ويخفضه في التّوّ واللّحظة، يحمل دموعه في

جيب سترته، يركبها ويتسلّل إلى نفس مخاطبه فيحيّره ويفحمه ويمضي معه...

لم يمض معه "المهداوي"، فلم يكن بينهما ما يسيران عليه معاً. كان "المهداوي" موقوفاً لا يسير يأخذه المخاض ويرقب، وكان هو يسير ولا يقف يرخي الحبال والسّلاسل للجان "الرّعاية" ويعمّد الجنين الغريب العاجل المستعجل... محكمة الشعب...

لم يمض معه "المهداوي" فقد قطعت بينهما "الرعاية" و"علالّة" وبقيّة من أثر الزّعيم صالح وأوراق "النّجار" والدّولة الجديدة، والعرض المسرحي لـ"يوسف وهبي" وبطل المسرحيّة الجديدة التي أعدّها على عجل كشأنه عادة. يكتب ويخرج ويؤدّي الأدوار وحده ثم يرخي للرّعاية الحبال والسلاسل لتكنس ما خلّفه وتعدّ له الركح، وتغلق دونه السّتار... أغلق الستار بين "المهداوي" و"بورقيبة" وظلّ الجدّ يتتبّع المسرحيّة من ثقب جبّة الشيخ العيّادي ويقذف بصوره إلى غرفته التي أغلقت يوم سال الدّم من رأسه، ويقف فيها الآن حفيده أحمد، ينظر إلى الصّور ويقرأ الكتاب الأبيض وينظر في وجه "المولهي" الحائر المتعجّب الذي فاجأه "بورقيبة" بمسرحية عاجلة مستعجلة وقد جاء يزوره في مشفاه الفرنسي في "لوشون"، يسعى بالصلح بينه وبين الزّعيم "صالح". استقبله "بورقيبة" وقال له:

- أنت قادم إلي يا سي الحبيب الآن لتقنعني بضرورة التقابل مع "صالح بن يوسف" وكيف يمكنني ذلك؟ وهل تعتقد أن فرنسا ستسمح لي بذلك وهي التي منعتني من اللقاء مع "مصالي الحاج".

غضب "المولهي" واشتدّ حنقه وردّ بعنف:

– ما دمت تأتمر بأوامر فرنسا وتقف حيث تريد منك أن تقف وتتحرّك كما تشاء هي لك أن تتحرّك... إنك بكلامك هذا فقدت عندي كل اعتبار...

وهمّ بالخروج من عنده والغضب يكاد يعصف به وأضاف قائلاً له:

– بعد هذا الذي سمعته منك الآن لم أعد أثق فيك...

كان "بورقيبة" أشد غضباً فانفلت لسانه بما لم يكن يريد أن يفصح عنه:

– أنا لن أرتاح إلا بعد دفن "صالح بن يوسف"...

فوجئ "المولهي" بما صرّح به "بورقيبة" وهمّ أن يغادر المكان يائسا من الصلح والاتفاق معه، فإذا به يتقدّم نحوه بسرعة ويضع يده على كتفه وينهمر باكياً ويندفع في تقبيله قائلاً:

– اسمع، أنا عندي ثقة فيك، امش إلى "صالح بن يوسف" وجيبو معاك، والله شاهد عليّ اللى باش تحكم بيه أنت أنا قابله على شرط ما تلوثليش لحيتي...

لم يستطع "المولهي" أن يدرك حينها موقف "بورقيبة"، فقد أخذته قدرته الغريبة في تأليف المسرحيّة وإخراجها والقيام بالأدوار فيها ومفاجآته بها حتى خرج من عنده لا يقدر فهما ولا يستطيع شرحاً محمّلاً بخمس صور "لبورقيبة" على شاطئ المنستير تحيط به نساء كاسيات عاريات يبعث بها إلى الزعيم "صالح" في القاهرة.

سار "المولهي" إلى القاهرة، يمنّي نفسه بقرب الصلح بين الزعيمين ويسأل عن سرّ الصور ويبحث عن تفسير لموقف "بورقيبة" المتقلّب. لكن "بورقيبة" زاده حيرة ومفاجأة حين أبرق إليهم في القاهرة وأعلمهم أنه غير مستعدّ لمقابلة الزعيم "صالح"...

أدرك "المولهي" بعد فترة طويلة أن "بورقيبة" ندم حين عبّر عن حقده لـ"صالح بن يوسف" جهراً فألفّ المسرحية وأخرجها وبكى وأقنع "المولهي" وحيّره، لكنّه لم يندم حين عمّد الجنين الجديد الغريب السّريع العجول المستعجل "محكمة الشعب"... عمّده وسمّاه ومضى إليه فرحاً به، يُلبسه من حليته يُزيّنه ويُنمّقه ولا يستحي ويخطب في الناس:

- أحدثنا محكمة القضاء العليا... حتى تحاكم في أسرع وقت وبروح شعبيّة متحمّسة فلا تقتصر مهمّتها على البحث في الجزئيّات التي لا طائل من ورائها لأن مهمّتها تتمثّل أساساً في حفظ الدّولة النّاشئة وإزاحة الأشرار من طريقها...

عشرة أيّام فقط مرّت على وصوله إلى رئاسة الحكومة ولم يجد "بورقيبة" غير هذا الجنين الغريب العجيب العجول المستعجل محكمة الشّعب ليحفظ دولته من مكر "المهداوي" وغيره من المخالفين تأتي بهم "الرعاية" آناء الليل وأطراف النّهار وحين لا يرقب "بورقيبة" أن يأتي أحد إليه...

أصدر "بورقيبة" الأمر ونفّذه واختفى وراء السّتار بعدما أنزلته "الرعاية" بعناية وخلا الرّكح من الممثّلين، فصعد إليه "فرحات"

وتبعه "زهيوة" و"جراد" و"الريّ" و"دبيّة "و"بللّونه"، وعلّق "عمر" شاشيته على باب الجلادين... أسدلت "الرعاية" السّتار بعناية واختفى وراءه "بورقيبة" يحرّك الدّمى ويرخي لها الخيوط والحبال والسّلاسل. وأوحى "علاّلة" لـ"فرحات" ليخرج "المهداوي" من مقاعد المسرح ويرحل به إلى حيث رحل الجدّ وكثير قبله... لم يخف "المهداوي" ولم يخش الموت ولم يطلب العفو ومضى إلى السّجن المؤبّد بعد أن جذب "بورقيبة" إليه حبل "علاّلة" الذي يشدّه من طرفه من خلف السّتار...

مضى "المهداوي" إلى السّجن ورأى أحمد المتسلّل إلى غرفة الجدّ المغلقة من يوم سال الدّمُ من رأسه، رأى صورة "المهداوي" معلّقة إلى الحذاء الأسود الحالك كالظّلام وفوقها رأس "فرحات" يقضم الصّورة رويدا رويدا ويبعث بما يقضمه منها في فم "علاّلة"...

اقترب أحمد من الحذاء الأسود الحالك كالظّلام، ينظر إلى الصّورة ويعجب، كلّما عجب اتسعت رؤيته ومشى قليلاً. كلما خطى خطوة غرق في الغرفة وإذا بصوت رخيم حزين شاك باك كأنّما الدّمع يسبق كلامه، يغنّي ويرسل لحنا طرب له أحمد وعجب وسمع وسأل ولم يقل شيئا.

قالوا "مجده" مشى وتفيــيّ
عند وكيل الجمهوريــة
محمد فرحات.. محمد فرحات

محمد فرحات وأعضـــاده
والناس اللّيّ خدمو اسياده
وإن شاء الله ما يبطـــى
إن شاء الله ما يبطى ويعجـّل
اللي قاعد على الشعب يدّجل
إن شاء الله ما يبطـــى

لم يسمع "المبروك" اللّحن، ولا ترك الألم له فسحة للطرب والصّور تسدّ عينيه وتغلق أذنيه عن الألحان والأصوات وغرفة الجدّ وعجب أحمد...

وحدها العاصمة تشدّه ويرقب أن يصل إلى "بورقيبة" فينفجر في وجهه حتى يجذب إليه حبال "الرّعاية" والسّلاسل ولا يرخيها أكثر مما أرخاها... مازال الطّريق إلى العاصمة بعيداً وصوت أحمد ينبعث من الغرفة ولا يصل "المبروك" الذي يسيل دمعه كما سال حبل المشنقة في ساحات جندوبة وفصل رأس "الطيب الزلاّق" عن جسده...

لم يسمع المبروك لحن أحمد المنبعث من غرفة الجدّ، فقد غطى عليه صوت "الأدغم" يوسوس إلى "بورقيبة":

– قص الرأس تنشف العروق...

وقصّ "بورقيبة" رأس "الزّلاق"، لم يشفع له "عبد الناصر"، ولا تاريخه ولا الأمان الذي أعطاه له "بورقيبة" حتى ينزل من الجبل

ويضع السّلاح من يده. نزل واثقا من العهد مطمئناً إليه. وحين وصل إليهم لم ينزلوا السّلاح وأنزلوا رأسه من بين كتفيه، قالوا إن عروقه تعبت مما يسرى فيها من أثر رأسه فقرّروا أن يريحوا عروقه من رأسه وتبعوا وسوسة "الأدغم" ونسوا العهد والتاريخ والشفاعة.

مات "الزّلاق" في ساحة جندوبة وبكاه "عبد الناصر" و"صالح بن يوسف" و"المولهي" و"المبروك". كلّما سال دمع "المبروك" بعث إليه "بورقيبة" بجمجمة أخرى تطيل طريقه إلى العاصمة وتوسع رؤية أحمد في غرفة الجدّ حيث يغرق ويعجب ويقرأ ما كتبه "كعفار" إلى "بورقيبة"، فوق عشرين رأساً من رؤوس قادة المقاومة المسلّحة، كتب إليه يؤنبه:

- تذكّر من سبقوك إلى الجحيم...

تسلّم بورقيبة رسالة "كعفار"، قلّب النّظر فيها، وضعها بين يديه وصمت قليلاً ثم تحرّك يقطع المكان جيئة وذهاباً... كان القلق يطير به، مازال يعجب من الجماعة كيف يقرؤون من اليمين إلى الشمال. يسأل "بورقيبة" نفسه ولم يهتمّ، فتح الرّسالة من جديد وقرأها من الشمال إلى اليمين "... الجحيم لمن سبقوك إلى الذكرى".... تحرّك نحو نافذة قصره، رمى ببصره بعيداً يرقب وفد "المبروك" القادم من "ورغمّة" وحركة رمال الصحراء الزاحفة نحو العاصمة وهدير بيّاش الرّهيب، رأى كل ذلك كأنّه يرى حلماً أو كابوسا... جنح الخيال به، يتبع حركة الجميع ينظر إليها من نافذة قصره. قرأ رسالة

"كعفار" من الشمال إلى اليمين... لم ير أمامه غير الجحيم، تقدّم نحوها قليلاً نزع معاليقها ثم اختفى خلف السّتار ونام...

لم ينم طويلاً... شهرين فقط. نام وترك الجحيم تأكل كل شيء، توقد بكل يابس يعترض طريقها، فلم تجد في الطريق أخضر تأكله. فالفرنسيس أخذوا كل أخضر وجرّدوا الأرض والطريق ورحلوا. وحين بدأ الآخرون يزرعون الأخضر فتح "بورقيبة" أبواب الجحيم فأتت على اليابس قبل أن ينبت الأخضر. صار كل شيء يابساً كالجماجم المرّصفة في غرفة الجدّ معلّقة في حذاء أسود كالظّلام يسيل منه دم غزير يملأ الكتاب الأبيض بين يدي أحمد الصّغير، يعجب ويرى كلما عجب اتسعت رؤيته، ويمشي، كلما مشى خطوة غرق في الغرفة وسال من جدرانها سرّ من أسرارها الغريبة العجيبة...

صار كلّ شيء يابساً، وخشي "بورقيبة" من يبوسة كل شيء فأوقد الجحيم حتى يريح عيون الناس من اليبوسة... كانت العيون في طول البلاد وعرضها ترقب الخضرة، وكان "بورقيبة" يوقد الجحيم ينزع اليبوسة ويريح العيون من تعب الترقّب والرّجاء... لكنّ الجدّ لم يتعب، مازال يرقب الخضرة فاتحا عينيه يثبّتهما في ثقب الجبّة تمرّ تحتها صور الجحيم إلى "صبّاط الظلام" وشاشية "عمر" وحجاب "المحجوب"، وقد نام خلفه "بورقيبة" وغطّ في نومه حتى أقلق "المبروك" شخيره الشّديد....

شهران ينام ويشخر، خلف السّتار تبوّأ مرقده وأرخي الحبال والسّلاسل للرّعاية وأطلق "المحجوب" من حجابه وعلّق "عمر" شاشيته فوق باب الجلاّدين، وفي "سيدي بن عيسى"، و"صبّاط الظلام"، وفي كل شوارع المدينة. كان "عمر" يقلّب شاشيته كيف يشآء، و"المحجوب" يرفع حجابه في كل وقت لا يرقبه النّاس. وكان "بورقيبة" يوقد الجحيم وينام وشخيره قوي يشتدّ حتى يقلق "المبروك" فلم يصبر وحمل إليه رؤوس "ورغمّة" واقتحم عاصمة البلاد....

لم يأت "المبروك" غازياً، وما جاءت رؤوس "ورغمّة" تحرق العاصمة، لكن جحيم "بورقيبة" لفحتهم بنارها فلم يطيقوا صبرا ورحلوا إليه....

شهران فقط، بعد وصول "بورقيبة" إلى الحكم، لم تُبق جحيمه أي رأس يطلّ عليه أو يمشي إلى جانبه، فجحيمه لفحت الجميع، حتى أخرجت "المبروك" ورؤوس "ورغمّة" إلى العاصمة على عجل يودّون لو طويت لهم الأرض واقتحموا على "بورقيبة" ستاره الذي ينام خلفه ويفتح من ورائه أبواب الجحيم. لعلّه حين يسمع قولهم ينزع الحجاب عن "المحجوب" فيكشف ستره وفعله وجهله ويكفّ أذاه عن النّاس، أو يضع عن رأس "عمر" شاشيته فلا يقلّبها كيف يشاء ومتى يشاء، يحملها على أجساد الرافضين ويضعها على أبواب المدن والقرى و"باب الجلاّدين" و"سيدي بن عيسى"...

نام "بورقيبة" خلف السّتار واطمأنّ "فالمحجوب" كفاه الرّافضين والمخالفين ومن به شبهة أو وسوست له نفسه أو رأى في منامه أنه يقطع الطّريق قبل سيّارة "الحبيب" أو كفّت يداه عن التّصفيق، أما "عمر" فكفاه كل الرّؤوس اليانعة المطلّة على الشّمس أو البحر أو دخلت المدينة ولم تتمرّغ بالتّراب...

كانت شاشية "عمر" عجيبة على كل الرّؤوس، تحجب بعضها عن الشّمس، وتغرق أخرى في قاع البحر وتمزّق البقيّة في التّراب ثم تعود فتعلّق على أبواب المدن وتعشق "باب الجلاّدين" كثيراً... دارت حول كل الرّؤوس وأرادت رأس "المبروك" ورؤوس "ورغمّة" فلم تقدر ولفحتهم بنار رعايتها فهبّوا وكانت عمامة "المبروك" وعمائم رؤوس "ورغمّة" أكبر من شاشية "عمر"، غطّت العمائم الشاشية وأوقفت رؤوس "ورغمّة" ورأس "المبروك" لفح جحيم "بورقيبة" حتى دخلوا عليه قصره...

حين دخلوا عليه لم ير رؤوسهم، فقد ظنّ أن الرّؤوس كلّها حُلقت وأقبل عليهم كأنّه يطوف بين أعجاز النّخل لكنّ رأس "المبروك" صدمه فأيقظه من نومه وأذهب ظنّه البائس وقال له:

- لقد تحمّلنا استعمار سبعين سنة ولكنّنا لم نستطع تحمّل استعمار هذين الشهرين.

ذهل "بورقيبة" وجحظت عيناه من الغضب فقد انتبه إلى رأس لم تُحلق ورؤوس لم تمرّغ في التّراب وحجبه ظنّه عنهم. هاج وماج

وأرغى وأزبد، وسال زبده في المكان حتى تزحلق فوقه "المحجوب" واستوى قاعداً بين نعلي "بورقيبة" شاخصة عيناه إلى الخلف يرقب رأس "المبروك" ورؤوس "ورغمّة" ويطلق أذنيه إلى الأمام يرهف سمعه ويرقب أمر "بورقيبة"...

أمره "بورقيبة" بالانحناء على الجماعة، "المبروك" وصحبه، وإخراجهم من المكان وهمّ أن يحلق رأس "المبروك" أو يحجبه عن الشّمس، لكن رأس "المبروك" كانت أعظم من حجاب "المحجوب" وشاشية "عمر". نزلت هيبتها في نفوس الجماعة المحيطين "ببورقيبة" فنظروا فيها ورأوا تاريخاً طويلاً مملوء جهاداً وصبراً، فاستحيوا منه ووسوسوا لـ"بورقيبة" أن يكفّ يده عنه.

اقتنع "بورقيبة" بكلام "المنجي سليم" و"المهيرى" واعتذر "للمبروك" ووعده أن يحجب "الرّعاية" عن النّاس ويشدّ إليه الحبال والسّلاسل ولا يرخيها.

خرج "المبروك" ورؤوس "ورغمّة" غير واثقين من عهد "بورقيبة" لهم وسمع "بورقيبة" وسوسة جماعته فاعتذر ولم يقتنع وأوقف "الرّعاية" عن الجميع لكنّه أطلق حبل "فرحات" حتى يحيط بالشّعب كلّه. وغضّ الطرف عن شاشية "عمر" فتقلّبت فوق الرّؤوس طويلاً وأتت على رأس "الجملي" وقد أوثقوه في سجن باجة ينتظر أن ينزل عن كتفه صاحبه بعدما أمر "فرحات" بذلك دون أن يقرّ لهم بما يريدون...

أصرّ "الجملي" على براءته وأصر "فرحات" على إنزال رأسه ولم يكن لديه غير شاشية "عمر" تريحه من هذا العناد، وتعطيه حجّة ينزل بها الرّأس التي أتعبته، فبعث بعمر إلى سجن باجة يحدّث "الجملي" ويغريه ويحتال عليه...

لم يكن لدى "عمر" غير شاشيته العجيبة التّي يعرف عنها "الجملي" كثيراً ولا يرضى أن يقايض بها رأسه. أخفى "عمر" شاشيته بعد ما صبّت في رأسه حيلة عجباً عرضها على "الجملي" فوافقه عليها، وعهد إليه بالأمان والخروج من السّجن وحين مضى "الجملي" على ما اتّفق عليه أخرج "عمر" شاشيته ووضعها على رأس "الجملي" ومضى به إلى غرفة الجدّ يتبع باقي الرّؤوس...

لم يجد "عمر" غير الحيلة يحطّ بها رأس "الجملي" عن كتفيه ويكفي "بورقيبة" شرّ عناده ويمنح "فرحات" وثيقة اعتراف يضمها إلى دفاتر محكمة الشّعب حتى لا يتّهم بتجاوز القانون.

لم يقرأ "فرحات" ما وقّع عليه "الجملي" فقد نصحه "بورقيبة" بعدم القراءة وأمره أن يعجل في حسم القضايا ولا يطيل النّظر في جزئياتها والتفاصيل التي تعطّل مصالح الناس...

خشي "بورقيبة" على عيني "فرحات" أن يتعبها النّظر الطّويل والتّدقيق في تفاصيل القضايا فأصدر ثلاثمائة وخمسة وسبعين قانوناً ترفع الرّقابة عن تدخّله في القضاء وتفسح له المجال أن يقتحم غرفة الشّورى في المحكمة حين يعنّ له، ثمّ استراح وأراح عيني "فرحات"

فلم يقرأ من يومها ورقة ولم يدقّق في أمر. ومضى ينزل الرّؤوس عن الأكتاف ويبعث النّاس إلى "غار الملح" ينظّفون الحلفاء المغمّسة في النّجاسة وهم موثوقون إلى الحبال سنوات عديدة...

أراح "بورقيبة" عيني "فرحات" من القراءة وأراد أن يريح القضاة الآخرين من كلّ شيء، قراءة وكتابة وحكما فدعاهم إلى وليمة في قصره وأعدّ لهم الطّعام والشّراب لكنّهم لم يذوقوا من طعامه شيئاً ولا من شرابه إذ سدّ نفوسهم عنه ما دار بينهم وبينه من حديث لم يتكلّموا فيه ولا اعترضوا على ما قاله لهم:

– أنا الآمر النّاهي، وُلاتي هم النّائبون عنّي والجميع خاضع لما يقولون، ولا قانون يعلو فوق أوامري...

خرج القضاة مغاضبين مضربين عن الطّعام والشّراب ومضى "بورقيبة" ينظر بنفسه في قضايا لا تهمّ الدّولة الجديدة ولا تزعج كرسيه. ودعا إليه "بعبد الكبير درغوث" حين رآه مصرّاً على الطّلاق وعاتبه وقال:

– كف عن العبث بزوجاتك...

أجاب عبد الكبير: أنا لم أخطف زوجة أحد...

نظر بورقيبة إلى كلمات عبد الكبير فرأى زوج وسيلة الأول تقتله الحسرة وقلّة الجهد ووسيلة تغادره إلى قصر "بورقيبة" غصباً عنه ولم يجد "بورقيبة" "لعبد الكبير" غير السّجن جزاء له...

بعث بـ"عبد الكبير" إلى السّجن بعد أن عرض به في كلامه، وكسّر البيض فوق رأس "تفّاحة" في ساحة "المنجي بالي" بعد أن زادت في سعر البيض أربعة مليمات ورمى بها في السّجن عاماً كاملاً وسلبها مائة دينار غرامة مالية جزاء فعلها. وبعث "بالمحضاوي" سبع سنوات وبضعة أشهر يرعى الغنم خلف القضبان بعد أن دافع عن غنمه أن يشرّدها أحد كبار المُلاّك في "تامزرط"...

ولم يفطن إلى الجدّ واقفاً في شوارع القصبة يرقب العابرين إلى "صبّاط الظلام" تحت جبّة الشيخ العيّادي وشاشية "عمر"...

أخذ الجدّ كل الصّور التي مضت ورمى بها في الغرفة ولما نزلت قدماه من شارع "القصبة" ولم يحوّل بصره عن ثقب الجبّة، رمى بالصّور هناك في الغرفة ورتّبها وأحسن وضعها وأحكم غلق الغرفة وشدّد قبضته على المفاتيح حتّى فاضت نفسه شعراً وأدركته ريح الشّاشيّة من بعيد فأفلت المفاتيح وتبع الدّم السائل من رأسه ورحل فلم يرجع...

رحل الجدّ ولم يرجع، وسبقته إلى الرّحيل رؤوس كثيرة قذف بصورها إلى الغرفة قبل رحيله. ولحقه آخرون في رحيل آخر خارج الأرض التي نشؤوا فيها ودافعوا عنها...

رحلوا ولم يستشيروا أحداً ولم ينتظروا إذناً، وعاشوا هناك خارج الأرض حتى رحل "بورقيبة" رحلة الجدّ ولم يرجع. رحل الجدّ وسبقته رؤوس ولحقته أخرى وبقي كثيرون آخرون وراء حجاب

"المحجوب" وشاشية "عمر" وتحت "صبّاط الظلام" يفرّون إلى الصّمت والمشي تحت الحائط ولزوم البيت في الليل وجزء كبيراً من النهار... بدّلوا أسماءهم وقدّموا الهدايا والرشاوى "للرّعاية" حتى لا تلحق بهم، وملؤوا الشاشية والحجاب مالاً وذهباً حتى تثقل رؤوسهم.. وفر آخرون إلى الموسيقى والمسرح وانشغلوا بها. عزفوا "المالوف" ورقصوا على خشبة المسرح وارتدوا أزياء عجيبة غريبة طريفة مضحكة ضحك منها "بورقيبة" وفتح لها "المحجوبي" فاه وطربت شاشية "عمر" لرقصها حتى علقت "بباب الجلاّدين"...

علقت شاشية "عمر" بباب الجلاّدين في "القيروان" حيث أطلقه "بورقيبة" عاملاً له عليها... وافق الباب الشّاشيّة كأنما سمّوه لها، وجاءها "عمر" كأنّه يجمع الاسم في اسمه هو وحده فقط..

انتقل "عمر شاشية" من ذبّاح في "صبّاط الظلام" إلى عامل على الجلاّدين في أبواب "القيروان"، ونسي حين دخلها أن فيها ناساً غير الجلاّدين، وتاريخاً غير الذّبح، وعبقاً من بخور زوايا الصّالحين، والجامع الكبير...

نسي كلّ ذلك أو جاء لينسى وعلّق شاشيته على "باب الجلاّدين" وصاح في وجه "السّيد العواني" نقيب الأشراف وقد جاء لتهنئته بالولاية. صاح في وجهه و"السّيد" يقرأ فاتحة الكتاب عوضاً عن كأس الشّاي الذي قدّمه له "عمر" في يوم صوم من أيام رمضان...

قال "عمر" صائحاً غاضباً:

– لقد قضيت عشر سنوات بجامع الزّيتونة ومتحصّل على شهادة العالمية وحين أحتاج إلى قراءة الفاتحة أقرؤها...

قال نقيب الأشراف، وقد طرده الوالي من قصر ولايته: هذا الوالي ما يجيبش منه ربّي...

لم يهتمّ "عمر" لكلام النّقيب وقد جاء لينسيه ذكر ربّه وأوامره، كما أمره "بورقيبة" حين بعث به إلى "القيروان" وعلقت شاشيته على "باب الجلادين"، فدلقت ما فيها مما وضعه "بورقيبة" قبل أن يرخي له الحبل حتى يصل إلى "القيروان".

عبّأ "بورقيبة" شاشية "عمر" شوكا ومسامير وحقداً وممحاة كبيرة وبصاقاً وزبداً وخارطة للمدينة ومواقع الرجال فيها. عبّأها بكلّ ذلك وأمره أن يدلقها على "القيروان"، لكلّ موقع موسوم على الخارطة نصيبه من فضلات الشاشية: الشّوك والمسامير للأشراف ونقيبهم وإمام الجامع الكبير، والحقد للجامع الكبير، والممحاة الكبيرة لأثر العابرين من شوارع "القيروان" القديمة وزاوية "سيدي الصحبي" و"فسطاط عقبة"، أما البصاق والزّبد فيبدله مكان الماء في فسقية الأغالبة فينفر منها أصحابها وتبقى "القيروان" صحراء جرداء تموت كما ماتت الزّيتونة هناك في العاصمة...

كان أحمد الصغير، الواقف في غرفة الجدّ يرى الماء متنقّلاً من الزّيتونة إلى السّدرة فيعجب، كلما عجب ازداد تدفق الماء نحو السّدرة ومات فرع من فروع الزّيتونة، سأل أحمد نفسه كأنه يخاطب

الجدّ الذي أغلق الغرفة ورحل ولم يرجع ولم يحك أسرارها لابنه ولا لأحمد الذي سأل نفسه عن عكس مسار الماء. وقد كان الجدّ مولعاً بالتّرتيب في الغرفة، وضع كل الأشياء في مواضعها، دقّق ترتيبها وأحكم نسجها لكنّه حوّل مجرى الماء من الزيتونة إلى السّدرة وتركه يذهب هباء.

ظنّ أحمد بجدّه ظنوناً كثيرة ونسي أن جدّه لم يحضر الزّيتونة إلى الغرفة ولم يرتّب موضعها ولم يحوّل الماء عن مجراه إذ شخصت عيناه في ثقب جبّة الشيخ العيّادي والجماجم تمرّ تحته إلى "صبّاط الظلام" يقيس على عظامها "عمر" شاشيته. يزيد وينقص حتى تنضبط الشاشية على حدّ الجمجمة...

حين شخصت عيناه في ثقب الجبّة لم ير الزّيتونة تمرّ تحتها لكنّه لمح "عمر" واقفاً يدلق من شاشيته كتلة من زيتون يابس جافّ لا حياة فيه ينزعه من الزّيتونة ليسكت الصوت المنبعث منها.

كانت كتلة زيتون شاشية "عمر" يابسة وعطشى وكان الماء يسقي الزّيتونة ويزيد صوتها صفاء حتى وسوس بورقيبة لعمر وأمره أن يحول ماء الزّيتونة عن مجراه، إلى "السّدرة" "فالسدرة" أولى به، لا يهمّ إن ماتت الكتلة، المهمّ أن تموت الزّيتونة ولا يبقى لها فرع...

ذهب الماء إلى السّدرة ولم تعد الزّيتونة أولى به. جفّف "بورقيبة" منابع الماء عنها، كره اسمها وكرهها هي وأبغض من بعثت بهم إليه واعترض طريقه أو رافقه فيه. لجأ إلى بعضهم أحياناً حين احتاج

إليهم حاجة مضطرّ يرى الشرّ لا بد منه، أخذ الشرّ منعرجاً قلقاً، قضى به مأربه ثم أغلق دونه السّبل وحوّل مجرى الماء من الزّيتونة إلى السّدرة.

لم يكن يحتاج إلى السّدرة لكنه كان يكره الزّيتونة ويبغض أصحابها وودّ لو عادت به الأيّام القهقرى مسرعة جارية حتى يدرك "ابن الحبحاب" فيمنعه من غرس الزّيتونة التي استطالت فروعها وامتدت إلى كل مكان حتى بلغت شاشية "عمر" واحتضنتها عشر سنوات، لكن "عمر" كان يضع شاشيته في الزّيتونة ورأسه في "السّدرة" يبلله بماء بورقيبة الذي حول مجراه بغضا للزيتونة وأهلها...

عادت بـ"بورقيبة" الذاكرة إلى زمن قديم ليس بعيداً عن زمنه، حين أراد أن يشرب من ماء الزّيتونة أو يغتسل ببعضه حتى يميل إلى مأربه، لكنّ الماء تأبى عليه، يومها اشتدّ بغضه لها أكثر من ذي قبل وعمل على تحويل مجرى مائها إلى "السّدرة" فهي أولى به.

تأبّى عليه الماء يوم أغراه "قريمون" بمنصب رفيع في الحكومة إذا استطاع أن يدفع بأصحاب الزّيتونة إلى العمل حتى يجري الماء كما يحب "قريمون" ويكره أصحابها.

وافقت رغبة "قريمون" هوى في نفس "بورقيبة" فانطلق مسرعاً إلى "الفاضل" وحاول إقناعه بفك الإضراب والعودة إلى العمل ليجري ماء

الزّيتونة في الأرض التي يحبها الرجلان وينتفع به الجميع... لكنّ "الفاضل" لم يقتنع بكلام "بورقيبة". رفض طلبه وقال:

- هذا الإضراب والصمود ينال من هيبة فرنسا ويفيد القضية الوطنية.

وحين أحس "بورقيبة" أنه لن ينجح في تحويل مجرى الماء والظفر بما وعد به "قريمون" أسرّ غضبه في نفسه وانصرف تاركاً أصحاب الزّيتونة وحدهم يواجهون الفرنسي ينتقلون من مكان إلى آخر، لا أحد يسمع شكواهم أو يقبل احتجاجهم بعد أن أقنعهم "بورقيبة" بأنه منشغل بقضية أهم من قضيّة الزّيتونة. وتذكّر "الباي" أنهم وقفوا إلى جانب سلفه "المنصف" فصدّ وفدهم عن دخول القصر ورفض "الشاذلي" ابنه أن يتسلّم مطلبهم فاتّجهوا إلى مقرّ الإقامة العامّة لعلّهم يظفرون بما لم يظفروا به عند "الباي".

سبقهم "بورقيبة" وسبقتهم الإقامة العامة والتقى الإثنان على قطع الماء عن الزّيتونة حتى لا تتشعّب فروعها ويستظلّ بظلها العابرون. وبعث "جون مونس" إلى "روبان ستومان" يحدّثه عن خطّته الجديدة لقطع فروع الزّيتونة وتجفيف منابع الماء عنها وقال له إن كل فصل نفتحه هو منع لتواجد فرع جديد للزيتونة...

ومضى يفتح الفصول ويقطع فروع الزّيتونة وطفق "بورقيبة" يغيّر مجاري الماء بعد عودته من المشرق.

كان أوّل مجرى بدأ به، مجرى "آل عاشور" الذي حرمه يوماً من الاغتسال بالماء ليتسلّم منصبه الرفيع في الحكومة. عاد إليه من المشرق ليغلقه ويقطعه عن مجاري المياه في البلاد فطرد "الفاضل" من جماعة الديوان...

كان "بورقيبة" قلقاً جداً من ماء الزّيتونة وفروعها ومن "آل عاشور" تحمله الذكرى إلى زمن قديم فتثير جرحه وألمه ويكتب إلى "بن يوسف" رفيقه في الحزب وخصمه:

موضوع "الفاضل بن عاشور" و"الطاهر بن عاشور" وجامع الزّيتونة يؤرّقني، فخطورته تزداد يوماً بعد يوم والوضع ينبئ بحدوث انقسام يجعل شباب البلاد فريقين متصادمين، الأمر الذي تعسر السّيطرة عليه خاصة أن منافسينا يستغلّون المشاعر الدينية بصورة بالغة التأثير مما جعلهم ينجحون في استمالة أتباعنا في الحزب وأنصارنا. وهذا الأمر كنت أتوقّعه منذ زمن بعيد، لذا لابدّ من البحث عن طريقة تحدّ من خسائرنا خاصة ونحن على أبواب مرحلة هامّة. هذه التخوّفات دفعتني إثر عودتي من المشرق سنة 1949 إلى إقصاء "الفاضل بن عاشور" من الدّيوان السياسي رغم ما يكنّه من احترام لشخصي.

تسلّم "بن يوسف" رسالة "بورقيبة" ولم يفطن لمكره وحيلته وقد أضمر أن يتخلّص من جماعة الزّيتونة ويخرج "بن يوسف" في وقت واحد.

انطلت حيلة "بورقيبة" على "بن يوسف" واصطدم مع جماعة الزّيتونة ومضى "بورقيبة" يغلق مجاري الماء حتى إذا وصل إلى رأس الحكومة كانت الزّيتونة قد جفّت والماء تحوّل إلى "السّدرة" إلاّ قليلاً تسرّب إلى القيروان. وقد وجدها تشرب من ماء الزّيتونة وتنعم به وتحاول أن تضخّ بعضه إلى فروع أخرى، عندها فطن "بورقيبة" للأمر فبعث بـ"عمر" إليها وحمّله مسامير وشوكاً وحقداً وممحاة كبيرة وبصاقاً وزبداً، وضعها في شاشيته وأمره أن يدلقها على القيروان كلها...

وصل "عمر" إلى القيروان ودلق ما في شاشيته كما أمره "بورقيبة" وكان الجدّ ينظر من ثقب جبّة الشيخ العيادي ويرمي بالصّور إلى الغرفة يرتبها بدقّة، وأحمد قد غرق في الغرفة تتّسع رؤيته كلما زاد عجبه. وحين رأى الماء ينهمر من الزّيتونة إلى السّدرة وقد كانت الزّيتونة أولى به أحسّ بشيء غريب يعبر أمام عينيه ويخترق قلبه.

كان الجوّ غائماً لم يدرك أحمد غيمه من داخل الغرفة، لكنّه أحس بالضيق يشتدّ على صدره ونفسه. التفت إلى زاوية ضيّقة في الغرفة وأدرك سرّ ضيقه، لقد وصلت شاشية "عمر" إلى موقع الجامع الكبير.

أمام الجامع الكبير رأى أحمد عجباً كثيراً وجماجم أكثر وزغاريد نسوة لم يفهم سببها حتى رأى شاشية "عمر" تنفصل عنه وقد سقط "عمر" أرضاً...

ضحك أحمد قليلاً ثم سكت فجأة، فمازال في الشاشية حقد كبير وشوك ومسامير وحرس وفضلات مسمومة. مازالت لم تدلق على مواقعها في القيروان، وقد سقط "عمر" وانفصلت عنه شاشيته.

سقط "عمر" حين دفعه رجل من "أولاد نصير" سلبه "الورداني" أرضه وحرثها وجاء "عمر" يسند صديقه الذي أرخى له "بورقيبة" الحبل كما أرخاه له هو. جاء مصحوباً بالحرس حانقاً غاضباً وصفع الرجل الذي سلبت أرضه... كان جمع "أولاد نصير" غفيراً، و"عمر" يمدّ يده ليصفع الرجل ويهينه والحرس يحيطون به يظنّ أنهم يحمونه من غضب رجل سُلبت أرضه وأهينت كرامته. لم يطق الرجّل صبراً فدفع "عمر" وأسقطه أرضاً وعلت زغاريد النسوة وضحك أحمد وهو غارق في غرفة الجدّ يرى الشّاشية تنفصل عن رأس "عمر". وضحك ثم أمسك عن الضّحك فقد دلقت الشّاشية ما بقي فيها من شوك وحقد وفضلات مسمومة...

دلقت الشّاشية ما بقي فيها ونزل منها "علاء الدين" في ساحة الجامع الكبير. نزل فيها بلباس أمريكي يستعرض في السّاحة روائعه ويدوس بخيله ساحة الجامع كأنه جاء غازياً للقيروان بدفع من أمريكا...

داست الخيول ساحة الجامع، ونزل "علاء الدين" في السّاحة وأحاطت به غانياته ونساء سافرات وكؤوس الخمر تدور بين الغزاة

الجدد الذين جاؤوا من أمريكا فوق شاشية "عمر" التي بعث بها "بورقيبة" إلى القيروان...

كان "علاء الدين" ينزل في ساحة الجامع يعاقر الخمر ويحتضن النّساء ويرسم روائعه ويدوس الساحة بخيله و"عمر" يقلب شاشيّته يستمتع بما يرى وإمام الجامع واقف هناك يحتجّ ويرفع صوته عالياً يصرخ رافضاً "روائع علاء الدين" وفضلات الخيول في الساحة وكؤوس الخمر المهشّمة فيها...

كان الإمام يصرخ و"عمر" منشغل عنه يقلب شاشيّته ويتبع الكؤوس تدور في أيدي الغانيات.

لم يكفّ الإمام عن الاحتجاج ولم ينتبه إليه "عمر" وحين أزعجه صوته كتب بأمره ينقله إلى حامّة قابس ويعزله عن إمامة الجامع الكبير.

حين وصل أمر "عمر" إلى الإمام والنّاس في القيروان، لم يبق في الشاشيّة شيء يدلق على أرضها، عندها انطلق النّاس في القيروان هاتفين "اللّه اكبر — ما يمشيش"...

تجمّع النّاس عند "باب الجلادين"، هناك حيث علقت شاشيّة "عمر" ودلقت ما أرسله "بورقيبة" فيها من شوك وحقد وأشياء أخرى.

من "باب الجلادين" انطلق النّاس وهتفوا وكبّروا ومنعوا "عمر" أن يرسل بالإمام إلى حامّة قابس وطلبوا من الإمام أن لا يمشي.

اشتدّ هتاف النّاس وعلا تكبيرهم، رفضوا أمر "عمر" بنقل الإمام إلى حامّة قابس و"عمر" منشغل عنهم يظنّ الأمر سهلاً وقد خبر النّاس من قبل وخيّل إليه أن "الرعاية" أنهت من نفوسهم العزم وأوهنهم "صبّاط الظلام" وجبّة الشيخ العيادي تمرّ تحتها الجثث إليه. لكن ناس القيروان خيّبوا ظنّه وكذّبوا أحاديثه وقد زعم أنه لم يمت يومها إلا واحد من الحرس قتلته رصاصة طائشة.

خيّب ناس القيروان ظنّه واشتدّ خروجهم عليه وكذّبوا حديثه وأخذ أحمد يقرأ جذاذة الجريدة المعلّقة في جدار غرفة الجدّ...

كان أحمد يقرأ والجثث تبرز له وجوهها وأسماؤها تمرّ أمامه يعدّها ويكذّب قول "شاشية" فقد بلغ العدد ستّة رجال وشاشية "عمر" لا تعترف إلا بواحد فقط والنّاس تكذّبه والجرائد وأحمد و"بورقيبة" نفسه الذي أمره أن يدلق ما في شاشيته على أرض القيروان وعلى كل أرض في تونس حتى يطهّرها من كل ما يظنّه يرفض أمره ويتحتّم نفيه إلى "غار الملح" أو ترقبه شاشية "عمر".

قرأ أحمد جذاذات الجرائد المعلّقة في غرفة الجدّ، وسمع النّاس تكذّب "شاشية عمر" وهي تردّ قولهم وتريهم شخصاً واحداً ميّتاً من الحرس وتحفظ الخمسة الآخرين وتخفي عن عيون النّاس وجذاذات الجرائد وعن غرفة الجدّ. أربعمائة من الذين خرجوا ضدّ "شاشية عمر" يرفضون أمره بنقل الإمام إلى حامّة قابس... أربعمائة اختفوا خلف القضبان وحُملوا إلى السّجن وقضوا سنوات عديدة ولم يشفع

كبر السنّ وتاريخ "شويشة" له وقد جاوز السّتين وأُوقف خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً لم يشفع له كل ذلك وحكم عليه بخمس سنوات سجناً...

مضى "شويشة" إلى السّجن ومضى معه الأربعمائة الآخرون ولفّ "عمر" شاشيته بـ"سفساري" متنكّراً في هيئة امرأة وفر خارج القيروان ليرخي له "بورقيبة" الحبل مرة أخرى حتى بلغ سوسة ونابل.

حوّل بورقيبة وجهته إلى بنزرت بعد أن أرخى الحبال لشاشية "عمر" ومدّ له في "السفساري" حتى غطّى سوسة ونابل والقيروان وبقيّة المدن...

حوّل وجهته إلى بنزرت فجاءته "سجنان" تمشي على أربع، ورآها أحمد من كوّة في آخر الغرفة فعجب واتّسعت رؤيته فإذا في بطون ناس منها خشاش الأرض وحشيشها أكلوه فماتوا. لم يجدوا غيره يأكلوه، قطع عنهم "بورقيبة" تربية الماعز وصناعة الفحم فلم يجدوا ما يقتاتون منه... وتضوّروا جوعاً فلم يسمعهم وقد كان بينهم وبينه أذن وزيره "بن صالح" يسمع ويغفل ولا ينقل إليه خبراً وقد مدّ له في الحبال والسلاسل حتى بلغ الوزارات الخمس، طرده، وأعاده ومدّ له في الأمر وفسح له في الفعل كما فسح لشاشية "عمر" و"سفساريه".

قطع في "سجنان" تربية الماعز وصيّرها ملكاً للدّولة الجديدة، ومنعهم من صناعة الفحم وبيعه فلم يجدوا ما يتّقون به برد الشتاء،

وكانوا حفاة عراة يغطّون عوراتهم بخرقتين واحدة من الأمام وأخرى من الخلف، ويمشون في شوارع "سجنان" وغاباتها يتبعون قطيع الماعز ويضعون الفحم حتى قطع عنهم "بورقيبة" كلّ ذلك، فمات عدد منهم ورأى أحمد خشاش الأرض وحشيشها في بطونهم بعد ما فتحها الأطبّاء.

قبل أن يموتوا جاءهم "بورقيبة" ونظر إليهم وإلى الخرقتين تغطّيان عوراتهم وأمر بالحظائر أن تقام ليشتغلوا، وبعث إليهم بوالي بنزرت فجمع التجّار صفّاً واحداً ساعات طويلة ينتظرون قدومه ثم جاءهم بتحيّة عجيبة غريبة دخل عليهم وقال:

- السّلام عليكم أيّها "القطعيّة والسرّاق"... انتم تسرقون النّاس بـ"الباتيندا"، ثمّ أمرهم أن يخرجوا ليقفوا طوابير يرقبون دورهم أمام التّعاضدية لشراء الزيت والصّابون وطعام العائلة وقد كانوا يبيعونها في دكاكينهم.

سحب منهم "الباتيندا" فأغلقوا محلاتهم ووقفوا في الطّابور ينتظرون حتّى جاعوا وماتوا وأراد بعضهم التنقّل إلى خارج بنزرت فلم يجد غير الانتظار ينتظره، فسيّارات الأجرة وشاحنات الخواصّ لم تعد كما كانت من قبل. سحبت من أصحابها رخص التنقّل وصارت بيد الدّولة الجديدة، لا تسمح بالتنقّل إلا في أوقات محدودة معلومة بعد أن يأذن الوزير لمن يشاء.

أفلس "العطّارة" وأفلس أصحاب سيارات الأجرة ورعاة الماعز وصنّاع الفحم ومات عدد من أهل "سجنان" ولم يجدوا ما يأكلون، و"بورقيبة" هناك في العاصمة يشحن الحلفاء المغمّسة بالنجاسة إلى المناضلين القابعين في سجن "غار الملح".

جاءته بنزرت بسجنان وغار الملح وكلّها، جاءته بعد أن حوّل إليها وجهته فرآها مثقلة متعبة ورأى ناسها يفرّون هنا وهناك يمرّون أمامه ولا يحيّونه ولا يقفون أمام قصره، يذهبون إلى أماكن أخرى يكرهها ولا يعرفها يخشاها ولا يدرك كنهها ويأخذه بها ظنّ السّوء فيرخي الحبال والسّلاسل والكلاب تتبع أثر الفارّين والمتفرّقين من حوله...

أزعجه ما رأى من أمر بنزرت وأذهب النّوم عنه فأراد أن يستريح فبعث بها إلى الفرنسيس تسبح في أحضانهم ألف سنة لكنّ الفرنسيس أهملوا عرضه ولم يلتفتوا إليه.

أدرك الفرنسيس حيلة "بورقيبة" وقد كانوا غضبوا منه حين امتطى خيول "علاء الدين" التي داست ساحة الجامع الكبير في القيروان وذهب بها إلى أمريكا، ثمّ حضن أهل الجزائر يمدّهم بالسّلاح ويؤوي رجالهم وقادتهم حتى بلغه غضب الفرنسيس وأحاط به، ولم يجد منه مهرباً فأهداهم بنزرت ألف سنة ليرتاح منها ويكفّ غضب الفرنسيس عنه ويغلق أرضه دون أهل الجزائر بعدما يرحل عنها الفرنسيس إلى بنزرت.

أدرك الفرنسيس حيلته فلم يفسحوا له، وتركوا الجزائر تتبعه وبنزرت تشدّ عليه وتضيق عنه "سجنان" و"غار الملح" وخشاش الأرض في بطون الموتى من سكّانها والفارّين منه إلى غيره هنا وهناك.

لم يحب الجزائر وما أحبّ بنزرت وأراد أن يستبدل هذه بتلك فيرتاح من كليهما ويكفّ غضب الفرنسيس ويقطع عن نفسه سبّة العرب ويشتري مديحهم لكنّ الفرنسيس أهملوا عرضه فغضب وحول وجهته نحو بنزرت.

كان بينه وبين الفرنسيس قصّة عجباً، آواهم ونصروه وحاربهم وحالفوه وأغضبهم وأهملوه وتقاطعت بينهما مصالح كثيرة ولم يحسب أن الجزائر وبنزرت سيقطعان حبل الودّ بينهما إلى حين.

حضن أهل الجزائر وقادتها وأمدّهم بالسّلاح ليقطع عن غريمه "بن يوسف" وعدو الفرنسيس الطّريق ويشتري مديح العرب وشكرهم وينصّب نفسه زعيماً كبيراً يجلس قرب "نهرو" و"عبد الناصر" و"تيتو".

لم يكن المقعد شاغراً ولم يوسع له الفرنسيس فيما أراد ولم يعيّنوه وقدّموا لملك المغرب ما لم يقدّموه له وأهدوا له كامل تراب المغرب وأهملوا عرض "بورقيبة" حين منحهم بنزرت وظنّ هو أنّهم أهملوه فتقلّب في مواقفه تقلّب شاشية "عمر" في "صبّاط الظلام" و"باب الجلاّدين" و"سيد بن عيسى"...

غضب من الفرنسيس فحوّل وجهته نحو بنزرت... أدرك الفرنسيس تقلّبه وغضبه وظنّه "ديغول" كوميديا يقول صباحاً ما ينفيه في المساء وقد أخذته الغيرة من ملك المغرب.

بلغ الفرنسيس ردّه لجميلهم وحدّثهم عنه "برسو" وقال لهم:

"بورقيبة اختار أن يردّ لنا الجميل على طريقته، فالمساعدات المقدّمة إلى الجزائريين قد تواصلت وتضخّمت في الآن نفسه وذلك بوجود خمسة عشر ألف جزائري مسلحين يخيمون في تونس، إلا أنه لا يقّدر الأمور حقّ قدرها، فالقوات الفرنسية قاتلت لصالح السيد بورقيبة وليس لفائدة ملك بروسيا".

حين أتمّ "برسو" كلامه عن "بورقيبة" حلّقت طائرات الفرنسيس فوق "السّاقية" قرب الجزائر تقصف وتنزل حمم قنابلها، و"بورقيبة" يستغيث ويهتف بالنّاس حتى يلتفوا حوله وحول "الساقية" والوطن كلّه.

ظل "بورقيبة" أسبوعاً كاملاً يهتف بالنّاس والنّاس لا يسمعون ولا يلتفتون إلى ندائه فأرخى الحبال والسّلاسل لجماعته يخرجون النّاس من بيوتهم إلى الشّوارع يسوقونهم سوقاً ويخفون من خلفهم العصيّ و"سفساري" "عمر" وشاشيته.

خرج بعض المئات في "قابس" و"قفصة" و"صفاقس"، وتكلّمت الصحافة كثيراً عن أحداث "السّاقية" لكن النّاس لم يسمعوا ولم يهتمّوا وخشي "بورقيبة" الأمر. أسرّه في نفسه ومضى يثير رمال

الصّحراء في وجوه الفرنسيس في "رمادة". فلمّا خرجوا اشتغل عنهم "بورقيبة" قليلاً وأحسّ غضبهم واشتدّ عليه ثقل الجزائر فعرض عليهم بنزرت لكنهم أهملوه...

حين أهملوه حول وجهته إلى بنزرت، رحل إليها واستقدمها عنوة ولم تأت إليه، مازال في نفسها بعض مما فعله بها إذ أهداها إلى الفرنسيس أو حاول، ومازال فيها أثر من "سجنان" و"غار الملح" وأشياء أخرى وتحيّة الوالي الذي بعث به إليهما.

ثار في نفسها كلّ هذا البعض فلم تأته طوعاً ورحل هو إليها وأجبرها أن تدفع له ثمن إهانته من الفرنسيس ولم يعطها شيئاً تخوض به المعركة ضدّ من أهانوه.

أهانها وأراد منها أن ترد الإهانة عنه فلم ترض، ودفع بها إليهم وجرّها إلى هناك خالية اليدين، حافية القدمين جائعة، لا تمسك شيئا وطائرات الفرنسيس تغطّيها من فوقها.

لم يقدم لها غير بعض المتطوّعين لا يقدرون شيئاً ولا يحسنون مسك السّلاح ويضربون ظهور الجيش التّونسي ثم يقبعون تحت الطّائرات لا يحسنون الهرب ولا الإختفاء حتى أبيدوا.

فرّ القادة وتركت بنزرت وحدها وبعض المناضلين وتحيّة الوالي العجيبة الغريبة وقد هرب صاحبها في صهريج ماء إلى رأس الجبل.

انفجر صهريج الماء في الطريق بالوالي إلى رأس الجبل من الجانب الأيسر وبعث من الجانب الأيمن بجثث كثيرة إلى غرفة الجدّ، وحاول أحمد أن يهرب منها أو أن يتجنّبها أو يوصد دونها الغرفة، فلم تكن الغرفة تتّسع لها جميعاً لكن الجدّ قد أحسن ترتيبها قبل أن يرحل ورتّب فيها الجثث.

عجب أحمد من رؤية الجثث كأنّها تهرب من موت تعيشه وتخجل منه فلم تقدّم له ما يردّ عنها الخجل... عاجلها الموت ولم تستعدّ له، أعلم "بورقيبة" أصحابها قبل الموت بقليل، حدّثهم قبل أن يصبحوا جثثاً تخجل من موتها، حدّثهم عن نيّته في أن يهدي بنزرت إلى الفرنسيس فغضبوا ولم يتكلّموا وفرحوا حين غيّر "بورقيبة" نيّته لكنّ الموت عاجلهم فأذهب فرحهم وأنزل في نفوسهم خجلاً من موتهم وفرّوا منه إلى الغرفة وتراصّوا فيها حسب ما أنزلهم الجدّ في أماكن مختلفة.

دخلوا الغرفة وركنوا إلى أماكنهم في زوايا مختلفة، وطأطؤوا رؤوسهم يحاولون إخفاء خجلهم وحمدوا للجدّ فعله وكرمه إذ أنزلهم بعيداً عن أعين النّاس وأراحهم من تعب الخجل الذي ملأ نفوسهم.

كانوا يحمدون للجدّ كرمه ويخفون خجلهم حتى فاجأهم "بورقيبة" وقطع عنهم حمدهم وبعض الرّاحة التي ظنّوا أنّهم قد حصلوا عليها، قطع عنهم ذلك وبعث إليهم بأساتذة حساب جاؤوهم بخبر رضوه ولم يفهموه..

قال أستاذ الحساب للجثث:

- جئنا لنقسم أعدادكم حتى تسع الأماكن المخصّصة لكم.

قالت الجثث: قد سبقكم الجدّ، فخصّ ورتّب وأكرم وأغلق.

قال أستاذ الحساب: لكن الجدّ لم يقسم، وأعدادكم وفرة لا تطاق والحساب علينا.

لم يلتفتوا إلى الجثث تريد أن تواصل الحديث والحوار، كانوا في عجلة من أمرهم وأمروا أن يقسموا العدد دون أن يحدّثوا أحداً أو يحاوروه، وقد فعلوا وهم يخشون أن يُفشى أمرهم إلى الدّولة الجديدة فتعمد إلى قسمتهم، فعجلوا يقسّمون الجثث ويغلقون دونهم باب الحديث.

أصرّ أساتذة الحساب على القسمة وفعلوها ولم يحدّثوا أحداً ولم يفسحوا للجثث في الحديث حتى لا يلحقوا بهم.

كان الأساتذة يحسنون حذف الصّفر في آخر العدد يقولون صفر زائد لا يقدّم ولا يؤخّر لن يتنبه إليه أحد إن حذف.

حذفوه وأعدّوا القسمة الجديدة وهمّوا أن يعودوا إلى العاصمة حاملين عدد الجثث بعد حذف الصفر، فرحين آملين بالجائزة الكبرى ومضوا.

الطريق بين بنزرت والعاصمة مسافة ساعة أو تزيد في السّيارة وأساتذة الحساب يحملون القسمة الجديدة ويستعجلون السّائق للوصول، فالجائزة هناك ترقبهم ورائحة الجثث بعد القسمة تسدّ

نفوسهم.. يعجلون إلى الجائزة لا يدرون ما هي لكنّها جائزة على كل حال... هكذا حدّثوا أنفسهم فالدّولة الجديدة تمنح أهلها كثيراً وتمدّ لهم في الجوائز كما مدّت لشاشية "عمر" و"سفساريه" وأفسحت لكرسي "فرحات" وللحلفاء المغمّسة بالنجاسة في "غار الملح".

كانت السّيارة التي تنقلهم إلى العاصمة جديدة، من سيارات الدّولة الجديدة، أسرع قليلاً من سيّارات بعض كبار التّجار والفلاّحين والأثرياء والأعيان الذين صودرت سيّاراتهم وممتلكاتهم بعد صدور قانون الخيانة الوطنية.

لم تعد لهم سيّارات لتسبق سيّارات الدّولة الجديدة التي أقلّت أساتذة الحساب الذين بعث بهم "بورقيبة" إلى الجثث المكدّسة في بنزرت ليخفّفوا من وطأة هجومها على غرفة الجدّ حيث يقف أحمد الصّغير ينظر ويعجب. كلما عجب اتّسعت رؤيته وقفزت إلى عينيه شاشيّة "عمر" تجهد أن تخفي عنه صورة الدكتور "بن سالم" زوج الأميرة زكيّة وعصا "عمر" تنزل على جسده صعوداً ونزولاً تضرب ولا تكفّ، ترسم جروحاً وتمسح عن الشوارع أثر عجلات سيارته التي نقلت الطعام إلى المساجين الذين أوقفهم الفرنسيس.

كانت عصا "عمر" تمسح أثر عجلات سيّارة الدكتور حتى تمرّ سيّارة أساتذة الحساب سريعاً وتبلّغ القسمة الجديدة لبورقيبة، قبل أن يعالجها الدكتور بمهارته ويسعفها فتحيا أو تعود إلى العدد السّابق قبل القسمة.

كانت شاشيّة "عمر" تدرك مهارة الدكتور وتخشى سرعة سيّارته فلم تجد غير زواجه بالأميرة زكيّة تهمة تلصقها على ظهره حتى تتعطّل سيارته وتصل سيّارة أساتذة الحساب قبله وقد أحضروا معهم القسمة الجديدة واستعدّوا للجائزة الكبرى.

اطمأن أساتذة الحساب وقد علموا أن سيّارة الدكتور وسيّارات أخرى لن تسبق سيّارتهم التي تنقلهم إلى العاصمة وهم يحملون القسمة الجديدة إلى بورقيبة. أصبحت كل السيّارات الأخرى تحت "سفساري" "عمر" وشاشيّته، عجلاتها معطّبة وأصحابها مكبّلون بالأصفاد والحبال وسيّارة أساتذة الحساب تسير هادئة مطمئنّة تشقّ طريقها إلى العاصمة ونفوس الأساتذة تتحرّق شوقاً للجائزة الكبرى وتستعجل السيّارة وتُسرّ استعجالها ولا تنطق به.

قاربت سيّارة أساتذة الحساب الانعطاف إلى العاصمة وقد سبقها شوقهم إلى الجائزة وملئت أيديهم بدفاتر الحساب مرسوم عليها أعداد القسمة الجديدة يعجلون بها إلى الدّولة الجديدة.

ثقلت السيّارة عن المسير إذ لم تقدر على الانعطاف فقد تمدّد فوق كراسيها اطمئنان الأساتذة الذين جلسوا يرقبون الوصول إلى العاصمة، وصار الأساتذة واطمئنانهم فوق كراسيها فثقلت على المسير وأعاقها الصّفر المحذوف من عدد الجثث يقطع عنها الطّريق يروح ويغدو كلّما سعى أمامها أرسل ألفاً من الجثث تجلس إلى كرسيّ من كراسيها فتزداد ثقلاً وتعجز عن التقدّم والسير...

امتلأت كراسيها ومازال الصّفر المحذوف يلقي إليها بجثث مؤلّفة حتى توقّفت ولم تتقدّم، تبعثرت طمأنينة الأساتذة وانقلبت قلقاً وجزعاً من شاشيّة "عمر"، لو أدركت آلاف الجثث التي يقذف بها الصّفر المحذوف العاصمة قبلهم وبلغت غرفة الجدّ قبل أن تبلغ أوراقهم يد "بورقيبة"... ستفوتهم الجائزة، وتأخذهم شاشية "عمر" ويغطّيهم "سفساريه" ويقذف بهم إلى "صبّاط الظلام" أو "غار الملح" أو "سيدي بن عيسى" أو أماكن أخرى لا يعلم عنها أحد شيئاً. أماكن كمثل التي بعثوا هم إليها الجثث المحذوفة من القسمة. خمسة آلاف ونصف الألف، لم تسع أوراق الحساب التي مدّهم بها "بورقيبة" فأخذوا ما وسعته الأوراق وقذفوا بالباقي إلى حيث لا يعلم أحد عنها شيئاً. فزعوا حين لحق بهم الصّفر المحذوف وألقى أمامهم بالجثث تتمدّد فوق السيّارة فتعيق سيرها نحو العاصمة...

توقّفت السيّارة ولم تتقدّم وقد أحاط بها الصّفر المحذوف وخمسة آلاف جثّة وقلق الأساتذة المبعثر فوق كراسيها وشاشيّة "عمر" و"سفساريه" وعصا غليظة تمتدّ من العاصمة إلى موقف السيّارة قبل المنعطف تضرب الأساتذة وتنسخ ما كتبوه وتقذف به في آذان الناس في كلّ بلاد.

ألقت العصا الغليظة بالعدد المنسوخ من دفاتر أساتذة الحساب في آذان الناس فلم يسمعوا جلبة الجثث وضجيجها وهي تدخل غرفة الجدّ وتتزاحم على المكان ويهرب أحمد الصغير منها ويودّ لو أغلق

دونها الغرفة خوفاً على الغرفة أن تسقط لكثرتهم وفي الغرفة حديث طويل وذكريات وأشياء أخرى وعجب يوسع الرؤية.

انفتحت الآذان لصوت العصا ولم تسمع غير الأعداد التي ألقت بها إليهم وصوت الدفّ والموسيقى ينبعث من المنستير وقد غادر إليها "بورقيبة" يحتفل بعيد ميلاده ويستعدّ لزواجه من "الماجدة وسيلة".

كانت الجثث واقفة تنتظر عودته من منتجعات أعياد الميلاد في أوروبّا كلّما عاد من واحد رحل إلى آخر حتى ملّت الجثث الانتظار، فآوت إلى غرفة الجدّ واستراحت وأطلقت روائحها تنتشر في كل مكان، ثم أغلقت آذانها عن صوت العصا الغليظة وأصوات جماعة الدّيوان تخلط صوت العصا بسباب شديد وشتائم كثيرة تهزّ نفوس أهل بنزرت الذين نجوا من قصف طائرات الفرنسيس وقدموا إلى العاصمة يحدّثون النّاس حديث الجثث والقتلى..

طفقوا يحدّثون الناس عن جثث مكدّسة هنا وهناك، ريحها تلفح كل مدن الولاية فانبرى لهم جماعة الدّيوان يلقون عليهم السّباب والشتائم يتّهمونهم في أنسابهم وفي بطولاتهم ويشكّكون في صدق حديثهم ويكثّرون حولهم الضّجيج حتى لا ترتفع أصواتهم فتفسد فرحة الزّعيم بزواجه من الماجدة وقد أعدّ له صخباً كثيراً وموسيقى تعلو صوت النائحات في بنزرت.

كان الزعيم قد سبق القادمين من بنزرت بعد الهدنة ليحدّثوا الناس عن حديث الجثث والقتلى. سبقهم وسط المعركة بعد يومين

من بدء القتل الفرنسي فأعلن طلاقه من زوجته الفرنسية حتى يزيد من اندفاعهم نحو طائرات الفرنسيس وجندهم وقد ظنّوا أن "بورقيبة" طلّق زوجته غضباً من فرنسا فحمدوا له فعله وانطلقوا تحت الطّائرات تحصدهم حصداً سريعاً...

نجا بعضهم فطفقوا يحدّثون النّاس حديث الجثث والقتلى لكنّ "بورقيبة" لم يسمع حديثهم وأطلق كلابه تكثر نباحها حتّى لا يُسمع صوت غير صوت موسيقى عرس الماجدة..

لم يجد "بورقيبة" غير أيّام الموت في بنزرت وصوت النّائحات وريح الجثث تنتشر في كل البلاد ليعلن زواجه من الماجدة بعد عشرين سنة من علاقته بها... تزوج بورقيبة من الماجدة وسيلة يوم ترمّلت آلاف النّساء في بنزرت ولم يجدن أزواجاً... مات أزواجهنّ تحت قصف طائرات الفرنسيس وقد دفع بهم بورقيبة إلى هناك...

صرن أرامل ذوات أيتام لا يجدن أزواجاً. لا يجدن أعمالاً ولا يقدرن عليها، وقد منعت عنهن مجلّة "بورقيبة" التعدّد فلم يلتفت إليهن أحد من الرّجال خوفاً من آكل الرجال...

كنّ شابّات جميلات صغيرات السنّ ولم يتقدّم إليهنّ أحد من الرجال خوفاً من آكل الرجال...

وكنّ نساء وسطاً أو عجائز كبيرات فصرن أرامل ذوات أيتام ولم يتقدّم إليهن أحد من الرجال خوفاً من آكل الرجال...

لم يرض بهنّ أحد من الرّجال لا شهوة ولا شفقة خوفاً من آكل الرجال... بورقيبة.

كان يكره التّعدّد في كلّ شيء، منع الدّولة من التّعدّد، ومنع الحزب من التّعدّد وصهر العروش في الدّولة وقضى على كلّ الرّؤوس المتعدّدة المختلفة ولم يترك غير رأسه.

كان يكره التّعدّد في كل شيء فمنع التّعدّد عن كلّ شيء، منعه عن الدّولة والحزب والرّؤوس ومنعه عن الأسرة والنّساء وأرامل بنزرت اللاّئي صرن أرامل ذوات أيتام، فقد دفع "آكل الرجال" برجالهنّ إلى طائرات الفرنسيس تحصدهم كذُباب منهمر أو كهشيم المحتظر.

ترّملت نساء بنزرت ولم يجدن أزواجاً ومنع "بورقيبة" عنهنّ ذلك وصرن أرامل ذوات أيتام... وحدها الماجدة وجدت "بورقيبة" ينتظرها بعد عشرين سنة من العلاقة بينهما تزوره فيها وتأتيه بين الحين والآخر تهنّئه وتحدّثه وزوجها هناك ينتظر عودتها.

جاءته أول مرة تهنّئه بعد خروجه من السّجن فتعلّق بها وظلّ يراسلها حين نُفي إلى جالطة وأدرك الفرنسيس تعلّقه بها فراودوه عن زيارتها حين رحل إلى فرنسا ليساند باي تونس، لكنّه رفض وظلّ ينتظر يوم القصف في بنزرت لتترمّل نساء بنزرت ويطلّق هو زوجته الفرنسية وتأتيه الماجدة وقد هجرت زوجها ليتزوّجها.

كانت الماجدة ذات حظّ وكان نساء بنزرت أرامل ذوات أيتام وكان "بورقيبة" يمنع التّعدّد ويشدّد في الطّلاق. يطلّق وحده ويتزوّج

وحده ويرمي في السجن بـ"درغوث" الذي طلّق زوجته ولم يسمع كلام "بورقيبة"...

غضب "بورقيبة" من "درغوث" فرماه في السّجن وغضب من "ديغول" الذي لم يمنحه ما منح ملك المغرب فطلّق زوجته "ماتيلدا" وتزوّج بالماجدة "وسيلة" بعد أن دفع برجال بنزرت تحت قصف طائرات الفرنسيس، فذهبوا وتركوا أرامل ذوات أيتام لا يجدن عملاً ولا يقدرن عليه وجماعة الدّيوان تلقي على أبنائهنّ بالسّباب والشتائم ويتّهمن النّساء في أعراضهنّ.

ظل "بورقيبة" وحده بين نساء باكيات صائحات نائحات يسمع دقّات الطّبول ويرقب قدوم الماجدة "وسيلة" إليه ويأمر "سفاري" "عمر" و"شاشيّته" أن يحوّلا عنه ريح الجثث المنبعث من مدن بنزرت كلّها.

كان "بورقيبة" يشتّم ريح عطر "وسيلة" وكانت ريح الجثث في بنزرت تنبعث من كل مكان وتتسلّل رويداً رويداً إلى الأنوف المنتشرة في البلاد تجاوز الحرس وجماعة الدّيوان و"سفساري" "عمر" و"شاشيته" وحجاب "المحجوب" وتملأ ما بقي من منافذ في أنوف لم تشمّ إلا الرّيح النتنة من يوم جاء الفرنسيس.

لم يهتمّ "بورقيبة" للرّيح المنتشرة في كلّ مكان، وغرق في ريح عطر "وسيلة" حتى كاد ينسى نفسه وأُشرب في قلبه عطر "وسيلة" ونسي أنه ممزوج بريح الجثث القادم من بنزرت...

شمّه ولم يهتمّ له كعادته يُهمل من يزعجه يبعث به إلى "شاشية" "عمر" أو يغطّيه بحجاب "المحجوب". كلّ الذين أزعجوه وأقلقوا راحته بعث بهم إلى حيث لا يعودون. كان لا يقبل رأياً يخالفه أو يعارضه، ملك الدّولة وملك الحزب وأكل الرّجال ورمّل نساء بنزرت وتزوّج "بوسيلة" حين انتشرت جثث الرّجال في كل مكان.

حطّت الحرب جثثها في كلّ بيت من بيوت بنزرت وحطّ "بورقيبة" بدلة الدّولة الجديدة على كتفي "وسيلة" وخلع عليها لقب الماجدة بعد أن جرّد الألقاب من الآخرين..

عبث بألقابهم وأسمائهم وجرّدهم منها وجمع الألقاب كلّها لنفسه وترك لقباً واحداً خلعه على الماجدة ولم ينس رفيقه "بن يوسف" وقد خرج فارّاً بلقبه ورأسه وأشياء أخرى.

استقرّ "بن يوسف" في ألمانيا ولم يستقرّ "بورقيبة" هنا، وقد فرّ رفيقه بلقب الزّعيم إلى خارج البلاد في مكان ظنّ أن "بورقيبة" لن يصل إليه، غير أنّ ريحه كشفت مكانه وأغرت "بورقيبة" باستنشاقها حتى تنفد، ولا يترك لأحد غيره ما يستنشق منها وقد جمع قدرة عجيبة غريبة على شمّ ريح مختلفة في آن واحد، ريح عطر "وسيلة" وريح الجثث المنبعثة من بنزرت وريح "ابن يوسف" تأتيه من ألمانيا وتغريه باستنشاقها حتى تنفد، كعادته في استنشاق الريح التي لا تعجبه.

وحده الجدّ كان يسرق النظر من ثقب جبّة الشيخ العيادي وهو يقف في الشّارع المؤدّي إلى "صبّاط الظلام" يرقب كلّ الصّور التي تعبر تحت الجبّة ويشمّ كلّ ريح تمرّ من هناك، يأخذ الصّور والرّيح ويبعث بها إلى الغرفة يرتّبها ويغلق الغرفة ويحفظ المفاتيح...

كان ذلك رأيه قبل أن يسيل الدّم من رأسه، فرحل ولم يرجع وترك لأحمد الصغير شأن الغرفة ولو يوصه بها.

دخل أحمد الصغير الغرفة دون إذن الجدّ. جال فيها، بعثر ترتيبها وسحب من الجدّ الوقت والمفاتيح، كلّما خطا في الغرفة خطوة غرق فيها وازداد عجباً وكلما عجب اتسعت رؤيته.

كان أحمد واقفاً حين مرّت به الجثث واقتحمت عليه الغرفة وأراد أن يتجنّبها وأسرعت هي تأخذ أماكنها كأنما قدّت منها...

جاءت جثث كثيرة وريح مختلفة ودم، وسالت على الحائط أسرار أخرى لم يرها أحمد حين دخل الغرفة أول الأمر، وحمل الكتاب الأبيض الذي احمرّ لكثرة الدّم السائل منه...

سالت الأسرار وعجب أحمد فاتّسعت رؤيته وغرق في الغرفة فتبعثرت أشياؤها المرتّبة وأهمل أحمد العين المفقوءة بضربة السّوط وقد برزت له حين فتح الكتاب الأبيض. نظر إليها وحدّقت فيه لكنّه أهملها حين تبعثرت أشياء الغرفة المرتّبة وغرق هو في جوّها المفعم بالأسرار.

حدّقت فيه فعجب لها مفقوءة تنظر إليه محدّقة، كان لم يمسسها سوء وسالت أسرارها فطفق ينظر قبلها وخلفها وبعدها، وأهملها إلى حين...

تزاحمت أمام عينيه صور كثيرة فأهمل المفقوءة ينظر حولها، وشدّه تحديقها فاضطرب ونزع ترتيب الأشياء من يد الجدّ وقد رحل وترك له الغرفة والمفاتيح والوقت فتبعثرت كلّ الأشياء والأسرار والجثث وانتشرت ريح مختلفة في المكان لم تنفد حين أراد "بورقيبة" أن يستنشقها كلّها.

ظلّت العين المفقوءة محدّقة في أحمد، وظلّ هو ينظر حولها وخلفها وقبلها وبعدها كأنّه يعدها أن يأتيها حين يزول عجبه وتضيق رؤيته فلا يبقى غيرها أمامه...

لم تدرك العين المفقوءة وعده لها، وظلّت تحدّق فيه كأنها تستعطفه أو تحثّه. وكان هو موغلاً في عجبه تأخذه الرّؤية الواسعة ويتبع خطوات الأسرار النّازلة من سطوح الغرفة يغطّي عينيه دم متطايرمن بلاد الألمان.

أسرع "بورقيبة" إلى مسح بقعه حتى لا يفسد الودّ بينه وبينهم.

كان الدّم دم الزّعيم "صالح"، يخالط دم أهل بنزرت وبينهما شهر واحد طلّق فيه "بورقيبة" زوجته الفرنسية "ماتيلدا" واستعدّ لشمّ ريح المسك في ثياب "وسيلة" واغتسل للعرس بدم الزّعيم...

لم يصبر "بورقيبة" على الدّم صبره على المسك، أمسك نفسه عشرين سنة يشتّم ريح المسك وينتظر يوم العرس. ومرّت سنوات الدّم الستّ كألف عام قضاها منزعجاً مضطرباً يرقب يوم الدّم الأكبر.

كان يحسب الأيّام والأعوام ويخفي في نفسه ما ودّ لو أبداه في كلّ حين وفي كلّ مكان.

لم يغفر له "بورقيبة" اتّهامه وقد كان يحقد عليه من قبل حين رفض رأيه حول العلاقة مع الفرنسيس وما تعاهد عليه معهم. واجتمع عنده الذّنبان، الرّفض والاتّهام وأوقد عليهما "بورقيبة" شيئاً من نار نفسه الطامحة الجامحة فانفجر الدّم من ألمانيا ينتشر كانتشار ريح الجثث في بنزرت يملأ عيني أحمد الصغير الواقف في غرفة الجدّ يقرأ الكتاب الأبيض، فاختلفا ولم يلتقيا...

أراد "بن يوسف" أن يأخذ الثّمرة كاملة غير منقوصة، طاهرة من نجس الفرنسيس الذين مكثوا طويلاً يقلبون وجوهها أكلاً ورفساً، ورضي "بورقيبة" أن يأكل منها وهي في يد الفرنسيس لا ينزعها من يدهم، يقلبون له الوجه فيأكل ويقسم لهم من وجوهها فيأكلون.

راود "بورقيبة" "بن يوسف" عن رأيه فأبى وأصرّ فاختلفا وافترقا.

مضى "بن يوسف" إلى الكاف وسليانة فاستضافه "زروق" وأعدّ له قرى يليق به وآواه وغطّاه بوصيّة جدّه الوليّ الصالح "سيدي حمادة" ثم قرأها عليه:

إن أرض الجدّ يتمتّع بها من ورثته من يهبّ لنصرة من قصدهم مستنصرا من ظالم.

قرأها عليه بعد أن حفظها فتمتّع بالأرض ونصر الزّعيم. وحين آل الأمر إلى "بورقيبة" استضافه عند لجان الرّعاية وحرمه الماء والغذاء والغطاء. خرج الزّعيم من عند "زرّوق" قبل أن يظفر بهما "بورقيبة" وقد ترك في قبيلة "أولاد عون" وصيّة الجدّ التي تغطّى بها، يقرؤونها ويحفظونها ويتوارثونها. تركهم مع الوصيّة ويمّم وجهه نحو الوطن القبلي فلقيه أهل المعمورة بأكثر مما لقيه به "زرّوق" "أولاد عون" وأقاموا له الأفراح وخصّه شاعرهم "صمادح" بقصيدة، وجاءته الرّسائل تترى من كل مكان تؤيده وتنصره...

كان يقرأ الرّسائل ويمضي، يدفع النّاس ويحثّهم لرفض الاتّفاقات التي أمضى عليها "بورقيبة".

سعى "بورقيبة" إلى أهل الجنوب يقنعهم بها، يخطب في أهل الحامّة يحطّ من عزيمتهم ويغلق دونهم أمل النصر على المستعمرين ويخيفهم من دبّابات فرنسا وطائراتها ويعلن:

إنه من المستحيل أن نواصل الكفاح وإن عدتم إليه مع الأسف فان فرنسا ستسحقكم بدبّاباتها وطائراتها.

قالها وانصرف إلى الجنوب الغربي وترك أهل "قابس" تأخذهم الحيرة وقد بُهتوا لقوله وهم الذين استضافوه قبل اليوم بأربع سنوات وحثّهم على الصبر والمقاومة وهوّن من أمر الفرنسيس..

مازال صدى كلامه في آذان أهل "الحامّة" و"بني زيد" وهو يقول لهم: نحن نعلم أن المستعمرين سيستعملون ضدّنا القوّة العسكرية وسيوجّهون نحونا مدافعهم ودبّاباتهم وطائراتهم لإضعاف الحركة الوطنية والدّستوريين، ولكن لن ينجحوا في قمعنا لأنه إلى جانبنا الحقّ والعزيمة.

سمعوا قوله وصفّقوا له... وحين عاد إليهم اليوم بُهتوا ولم يفهموا، وأخذتهم الحيرة فتركهم ومضى إلى الجنوب الغربي يحشد النّاس ويحقّر الذين مضوا إلى الجبل يقاتلون الفرنسيس ويخيف الذين ظلّوا في المدن ينصرونهم ويحفظونهم ويمدّونهم بالعون والعتاد...

مضى إلى الجنوب الغربي وهتف بأهل "الرّديف" من المستحيل على الشعب التونسي أن ينجح ويحرز النصر على فرنسا.

وهتف بأهل "المتلوي": إن ميزان القوى غير متكافئ وإن أمّة بلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف لا يمكن أن تقف أمام أمّة تبلغ خمسين مليون ساكن.

وحين وصل إلى "قفصة" ليخطب في النّاس الذين جُمعوا له بالقوّة قاطعه النّاس وهتفوا باسم "بن يوسف" ولم يخرج إليه أهل "السّند" ومنعه أهل "بوزيد" من جمع النّاس أو الحديث إليهم. عندها قرّر في نفسه أن يغتسل لعرس "وسيلة" بدم "بن يوسف".

أقرّ "بورقيبة" الخلاص من "بن يوسف" لكنّ النّاس جاؤوه يحاولون تهدئة خواطره والحدّ من غضبه. جاءه أصدقاء "بن يوسف"

يسعون للصّلح والتّوفيق، جاؤوه لا يعلمون عن سرّ نفسه شيئاً. وحده "الحبيب المولهي" من علم منه ما أسرّه في نفسه حين فاض به الغيظ والحنق...

جاءه كثير من النّاس فرضي قدومهم ولم يرق له، استمع إلى كلامهم وأفشل كلّ محاولاتهم للصّلح، وحين مرّ بسويسرا قاصداً فرنسا للقاء "ديغول" بشأن بنزرت، وكان "بن يوسف" قد دخلها بعد أن امتنع مسؤولها عن الإذن له ثم أعلموا "بورقيبة" بوجوده، فرجاهم أن يجمعوا بينه وبين "بن يوسف" لعلّهم أن يصلحوا بينهما..

رجاهم فرضوا لكن الزّعيم اشترط عليهم أن يصطحبوه إلى المنزل ويحرسوه، فقد كان يخشى مكر "بورقيبة" وغدره به، وحين التقيا عجب "بورقيبة" لأمر الحراسة والتفت إلى "بن يوسف" وقال: عهدي بك شجاعاً وإذا بك تخاف وتصحب معك القوّة.

قال بن يوسف: أنا كنت واحداً منكم، كلّكم مجرمون أيديكم ملوّثة بالدّماء أتريد أن أموت هكذا جيفة؟ لا بد أن أضمن حياتي وأنا عارفكم وأنتم تعرفوني. أنتم كلّكم قتلة.

قال بورقيبة: هل مازلت على عنادك مثل عبد النّاصر.

قال بن يوسف: لي الشّرف أن أكون في مستوى عبد النّاصر وفي عناد عبد النّاصر.

قال بورقيبة: ألا ترى تونس الآن ومكانتها وحسن سمعتها.

قال بن يوسف: سمعتها في الطّين، سمعة فاسدة لتونس في الخارج.

قال بورقيبة: الاجتماع انتهى.

انتهى الاجتماع ومضى كلّ إلى سبيله وواصل "بورقيبة" طريقه إلى "رامبوي" يمنّي النفس بمقابلة "ديغول" ويضمر فيها حقده على "بن يوسف" بعدما صفعه حين أنهى اللقاء معه...

اتّجه "بورقيبة" إلى "رامبوي" يسرّ في نفسه حقداً دفيناً ضد "بن يوسف" وتحاصره مناشير اليمين الفرنسي تكشف نيّته في إدخال الأمريكان في قضية الجزائر وتفضح مناشير اليسار عزمه اقتسام الصحراء مع "ديغول" على حساب جبهة التّحرير.

حاصرته مناشير اليمين ومناشير اليسار وحمله حقده على "بن يوسف" إلى "رامبوي" خائفاً مذعوراً يوكل "للمنجي" في نيويورك استعطاف "كيندي" للضّغط على فرنسا لحمايته وعدم تعريضه للخطر.

وصل "بورقيبة" إلى "رامبوي" ونزل غرفة "برج فرنسوا الأول" وقد علم أن "ايزنهاور" و"خروتشوف" قد سبقاه يوماً ما إليها وأقاما فيها فانتفخ صدره ومشى وسط الغرفة أمام وفده الذي جاء معه يظنّ أن الغرفة رفعته إلى صفوف الكبار...

انتفخ صدره وداخله القلق، مازال بعض الوقت يفصله عن لقاء "ديغول". نظر إلى الجماعة حوله وقال: إنّ لقاء هذا الفيل يقتضي منا ملازمة الهدوء والرّصانة.

كان مغتبطاً يمشي مترنّماً ويزمّ شفتيه وهو يفكّر كيف يلتقي هذا الفيل العملاق الذي يجثم جيشه على أرض بنزرت ويرفض أن يتنازل عنها...

راودت "بورقيبة" أفكار كثيرة يستعدّ بها للقاء الفيل كتلميذ يتهيّأ لدخول امتحان لم يستعدّ له كثيراً. وفاجأه الفيل فدعاه إلى لقائه على انفراد، خمس ساعات كاملات كان اللقاء... خمس ساعات قطعها "بورقيبة" لفترة قصيرة غيّر فيها قميصه الذي تبلّل عرقاً خجلاً من الفيل أو رهبة منه، ضاع منه الكلام واستبدله بالعرق حتّى غيّر قميصه ثم خرج مبتهجاً وقد دعاه الفيل إلى مأدبة عشاء فاخرة سال على موائدها الطّويلة لسانه متحدّثاً عن ذكريات حياته الطّلابية في فرنسا وحبّه "لمنداس فرانس" الذي منحه الوثيقة وملأ قلبه حقداً على رفيق نضاله "بن يوسف".

انتهى لقاء "رامبوي" وظنّ "بورقيبة" أنه أخذ بمجامع قلب "ديغول" وقد استمتعا بخضرة فصل الرّبيع لتسوية مشكل شخصيّ واعتبرا نزواتهما شرفاً للأمّتين اللّتين يمثلانها.

عاد "بورقيبة" إلى تونس فرحاً مسروراً مغتبطاً بلقاء الفيل لكنّ الفيل أفسد عليه فرحته حين ذكّره بحائط المرسى وكتب إليه هذا أدنى ما يجب اشتراطه.

أدرك "ديغول" غبطة "بورقيبة" بلقائه وفرحه به فأفسد عليه فرحته وطالبه بإرجاع بضعة أمتار من حديقة السّفارة الفرنسية التي انتزعتها بلديّة المرسى لتهيئة الطريق، فانفعل "بورقيبة" مندهشاً وظنّ أن "ديغول" يحاول تخفيف تأثير لقاء "رامبوي" متذرّعاً بقضيّة قديمة لتسوية مشاكله الداخلية. ورحلت به ذاكرته إلى المرسى وقد خيّل إليه أنه أسكت صياح الديّكة وصوت الدّجاج فيها حين هدم المساكن المحيطة بقصره هناك.

كأنّ الفيل قد أخذته الغيرة على الدجاج والدّيكة التي أذهب "بورقيبة" محاضنها فذكّره بها...

لم يجد "بورقيبة" ما يردّ به على مذكّرة الفيل، فانتظر أشهراً قليلة ثم بعث إليه برجال عزّل من السلاح ومتطوّعين لا يحسنون القتال وأمرهم بالصّمود تحت طائرات الفرنسيس لعلّ الفيل يخجل من غيرته على الدّجاج والدّيكة فيكفّ عن القتال وينسحب من بنزرت، لكنّ الفيل زادت غيرته فقصف الجميع وقتل الكثير وترك نساء بنزرت أرامل ذوات أيتام لا يجدن عملاً ولا يقدرن عليه. وقد منعت عليهنّ مجلّة "بورقيبة" أن يكنّ ضرائر في بيوت أخرى فظللن

نائحات باكيات صائحات يسمعن صوت طبول الفرح يرتفع لعرس "بورقيبة" وخرير الدّم يغتسل به لاستقبال الماجدة...

مات رجال بنزرت وصارت نساؤها أرامل ذوات أيتام وبعث "بورقيبة" من يأتيه بدم "بن يوسف" من ألمانيا حتى يغتسل به للعرس القادم، عرس الماجدة يتوّج به عشرين سنة من حبّ وغزل وأشياء أخرى...

لم يتأخّر وفد "بورقيبة" كثيراً وعاد إليه بدم "بن يوسف" منهمراً من أرض ألمانيا يسيل في شوارع تونس فيسدّ "بورقيبة" دونه المجاري حتى لا يلطّخ ثبات العابرين العراة الحفاة، أو يغمر النّائمين في الطرقات...

كان "بورقيبة" يسدّ المجاري عن الدّم القادم من ألمانيا ويجمع قطراته ليغتسل به لعرس الماجدة، وكان أحمد الصّغير يأخذ الكتاب الأبيض المحمرّ بالدّم بين يديه ينظر فيه ويعجب من العين المفقوءة تحدق فيه كأنها تحكي له أو تلومه. مازالت العين المفقوءة تحدّق فيه ومازال هو ينظر حولها وخلفها وقبلها...

ألقى أحمد نظره خلف العين المفقوءة فاستقرّ في منطقة "قفصة" ونزل بين أهلها المتجمّعين حول "بورقيبة" و"الباهي الأدغم" و"المنجي سليم"، ثلاثة جاؤوهم من العاصمة يبغون إقناعهم بما وصلوا إليه مع جماعة "منداس" ويسعون لجمعهم حول الدّيوان لينفضّوا من حول "بن يوسف". جاء الثّلاثة إلى "قفصة" وفي نيّتهم أن

يدفعوا بالنّاس حتى ينفضّوا ويتركوا "بن يوسف" وحده ويلتفّوا حول الدّيوان الذي جاء إليهم باتّفاق الاستقلال الدّاخلي وقد ظنّوا أنّ أهل "قفصة" وقد أنهكهم الجوع والاحتياج والعراء سيهرعون إلى الاتّفاق ويباركونه ويتركون سلاحهم ويسلمونه لهم.

حين وصلوا إلى "قفصة" لم يهرع إليهم الناس كما ظنّوا فجلبوهم بالقوة وأجبروهم أن يسمعوا ما يقولون وقد غيروه حين لم يهرع إليهم الناس.

قرر "بورقيبة" وجماعته أن يهينوا هؤلاء الأعراب الذين أهانوهم ورفضوا أن يهرعوا إليهم ويهلّلوا لهم.

كان أحمد ينظر ويعجب لأهل "قفصة" يتضوّرون جوعاً ويرفضون ما جيء به إليهم. وكان "بورقيبة" يشتدّ غيظه ويحنق عليهم ويوكل إلى "المنجي سليم" أن يخاطبهم ليسبّهم ويهينهم:

"ما تظنّوش أن الاستقلال جبتوه بها المكاحل المكبّسه بالقّل، الاستقلال جابته الأدمغة موش انتم اللّي جبتوه".

سأل أحمد نفسه أسئلة كثيرة وبحث طويلاً في أرجاء "قفصة" ولم يتحرّك من مكانه. كانت الأدمغة تتزاحم عليه تريه شخوصها وآثارها وتمضي صامتة تمد يدها لتصفع "المنجي" ثم تتراجع. ولم يكن الخوف يشدّها عن الصّفع لكنّها الأدمغة حين يفيض بها علمها وما تخبّئه...

هكذا أقنع أحمد نفسه وهو يراها تفعل فعلها وتنسحب صامتة هادئة كرأس جدّه الذي سال منه الدّم فرحل ولم يرجع لكنه ترك الغرفة وما فيها مرتّبة منظّمة مليئة بأحاديث وأسرار كثيرة.

كذلك كان رأس جدّه واقفاً في آخر الصفّ ينظر إلى الأدمغة التي جاءت من "قفصة" تمرّ بين يدي أحمد وتمدّ يدها لتصفع "المنجي" ثم تمسك وتمضي... فتح أحمد الصغير "لسان ابن منظور القفصي"، قيل له إنه ليس من "قفصة" فلم يهتمّ، يكفي أنه نسب إليها ويحمل اسمها وهو منها. إذن هو أحد أدمغتها وإن مرّ بها ولم يستقرّ فيها، وهو واحد ممن أهانه "المنجي" وقد تحدّث "عن المكاحل المكبسة بالتل"...

فتّش أحمد في "لسان ابن منظور" عمّا قاله "المنجي" فلم يجده. بهت وكاد يصمت وسأل جدّه وقد وصل إلى آخر الصفّ: أهذا الدّماغ جاء من هناك وجاء بالاستقلال كما يقول؟

لم يجبه جدّه، كان هو أيضاً يبحث في التلّ عن بقايا كحل أو مكاحل ولم تكن هناك غير تلّة "عرباطة" تطلّ على "قفصة" وتخفي في مغاورها رجالاً كثيراً وسلاحاً ورعباً لجند الفرنسيس.

تلّة جبل "عرباطة" هي وحدها ما وجده في "لسان ابن منظور" عن التلّ ووجد فيها "عبد الله البوعمراني" و"الشيخ الحاجي" و"علي درغال" ينتقلون عبر "قفصة" إلى "القطار" و"السند" ويدفعون بالموت إلى جند الفرنسيس.

ورأى قبلهم وقرب التّلّ، رأى "الطّالب العربي" يرفض أن يسلّم سلاحه وينتفض ضد جماعة الدّيوان وظلمهم ضد "صبّاط الظلام" و"شاشية عمر" وغيرها... لكنّ النّاس أرهبهم وكيل الجمهورية في محكمة الشعب فلم ينضمّوا إلى "الطالب العربي". تركوه وحده مع بعض رفاقه، لم يختاروا تركه، كانوا هناك في سجن "غار الملح" و"صبّاط الظلام" وكان هو وجماعته في "بني خداش" تحاصره قوات "بورقيبة" وقد وشى بهم جند الفرنسيس حاصروهم وقتلوهم ثم أعدموا من استسلم منهم قبل أن يصل إلى محكمة الشعب.

حضن أحمد "لسان ابن منظور القفصي" ومسح عنه بعض غبار الطريق، تشمّم ريحه واستنشقها بعمق، لم تكن في "اللسان" من "المكاحل غير التي حملها "المنجي" إلى "بورقيبة" مملوءة كحلاً تتزين به وسيلة استعداداً للزّفاف.

لكنّ "بورقيبة" و"وسيلة" لم يبحثا عن كحل المكاحل... فقد كانا استعدّا للزفاف واغتسلا بدم أهل بنزرت.

أغلق أحمد "اللسان" فوقف أمامه أحمد، إسمه الذي لم يلتقه، بينهما فارق سنّ كبير... جيل أو اثنان لكنّه يعرفه ويسمع عنه. حدّثه عنه جدّه وأبوه ومعلّمه وشوارع "قفصة" وأحياؤها وسكّة الحديد ومناجم "المتلوي" و"المضيلة" و"الرّديف"...

كلّما حدّثته عن "أحمد التليلي" وهو الآن واقف أمامه يمدّ يده ثم يمسكها وكان هو دماغ آخر من الأدمغة التي أراد "المنجي" أن

يهينها نيابة عن "بورقيبة" لكنّ أحمد الكبير لم يجبه، نظر إلى أحمد الصّغير تبسّم وانصرف.

مازالت هناك أدمغة كثيرة تقف في الصّف، تمرّ أمام أحمد الصغير تكتحل عيونها بالدّمع وتحمل في أيديها مكاحل النّساء تكدّسها أمام "المنجي" وتمضي...

تكدّست المكاحل حول "المنجي" حتى أخفته فلم يعد يراه أحمد الصغير. غطّت كلّ جسده ومن ورائه جسد "بورقيبة" والشّارع الطّويل في "قفصة" الذي نزلا فيه.

أدار أحمد ظهره والتفت وهمّ أن ينصرف فلمح جدّه يقرأ كتب "ابن راشد القفصي"... دماغ آخر لم يحدّثه أحمد الصغير لكنّه رآه في الصّف يمدّ يده ثم يمسك كتبه تقطر علماً وريحاً طيّبة في شوارع "قفصة" و"بورقيبة" يغلق دونها المجاري والطّرقات حتى لا تنتشر في مدن تونس.

كان يكره كل الأدمغة التي تأتي من هناك، وكل دماغ غير دماغه حتى دماغ "محمد الهادي القفصي" أول المهندسين في التدفئة المركزيّة كان يكرهه. دفع به إلى المحاكمة وبحث القاضي عن إخلاصه "لبورقيبة" من عدمه، لم يهتمّ لدماغه ولا لخبرته. كان يهمّه فقط أن يزحف من "قفصة" حتى "المنستير" ثم يواصل إلى العاصمة...

لو فعلها لرضي عنه "بورقيبة" لكنّ دماغه كانت أكبر من أن يزحف عليها أو يزحف بها. وحين أعيت دماغُه "بورقيبة" بعث به إلى المحكمة ثم فصل دماغه عن جسده.

رأى أحمد رأس "الهادي" تنفصل عن جسده، فذكر جدّه الذي سال من رأسه الدَمُ منذ زمن فرحل ولم يرجع...

حنّ إلى جدّه وتحسّس خدّيه كأنّ بللاً بدأ يجتاحهما...

بدأ دمعه يسيل وهو يرى العين المفقوءة من ضربة السّوط تعود لتنظر إليه، كانت حدّقت فيه وأمهلها، أخّر النّظر إليها إذ أخذه العجب عنها، وكان كلّما عجب اتّسعت رؤيته وانهمرت الأسرار تسيل على جدران غرفة الجدّ الذي سال الدّمُ من رأسه فرحل ولم يرجع...

كان يبكي ويسمع قهقهات تأتي من بعيد، من بعد عام أو يزيد. لا يرى المكان لكنّه يسمع القهقهة تخرق دمعه الجاري على خدّيه وتصمّ أذنيه. عرفها وأدرك صورة صاحبها وتيقنّ منها...

مازال "بورقيبة" يضحك ويسخر من أدمغة الرّجال في "قفصة" وأدمغة أخرى فصلها عن أماكنها ثم جلس على كرسيّ يضحك منها وكانت القهقهة كقطعة تخرج من كلمات "بورقيبة" تتسلّل من بين الحروف وأحمد يسمعها ويعجب.

"أناس بسطاء"... قال "بورقيبة" وقهقه فخرق دمع أحمد الصغير.. "استقر في أذهانهم أنّهم هم الذين رفعوا السّلاح وحاربوا في الجبال حتى خرجت فرنسا"...

أتمّ "بورقيبة" كلامه فتذكّر أحمدُ خروج فرنسا وبحث عن أثر سلاحهم فيه. كان السّلاح في كلّ مكان وفي كلّ جسد من جند الفرنسيس، كانوا يهربون من ليل الجبال ونهار المطاعم الكامن، لكنّ "بورقيبة" أنقذهم حين رضي بما أعطاه له "منداس" فانتصب على الكرسيّ يقهقه ويسخر منهم... "يريدون أن يكونوا هم الوزراء والسياسيون والسفراء والقادة".

هؤلاء لا يصلحون للقيادة، لن يسمح لهم بذلك. قرّر في نفسه وأفسح لهم في السّجون و"شاشية" "عمر" و"صبّاط الظلام" حتى أزهق أرواحهم، وترك روح فلان محافظ الشرطة المستيري الذي عمل طويلاً مع فرنسا واضطهد المناضلين. ترك روحه ترتقي في المراتب والدّرجات وقد كان وعد بإزهاق روحه...

يومها التقى "بورقيبة" "محمد الصالح" في القاهرة وتحدّث إليه...

– لو أمسكت بالسلطة في يوم ما فإن فلان الفلاني سأشنقه في "باب بريقشة" في "المنستير".

ظنّ "محمد الصالح" أن "بورقيبة" سيعلّق عليه رؤوس الذين خانوا المناضلين وتعاونوا مع الفرنسيس لكنّ "بورقيبة" خيّب ظنّه وحوّل الرّؤوس إلى "باب الجلادين" في "القيروان" وقد بعث إليها "بعمر"

ينزع "شاشيته" ويضعها، كلما وضعها فوق رأس لا يعجبه عُلّق فوق "باب الجلادين".

كانت رؤوس أخرى غير تلك الرّأس التي وعد "بورقيبة" بشنقها في "باب بريقشة" لكنّ "محمد الصالح" لم ينس الأمر وحدّث به بعض أصدقائه وسمعه منه "محمود زهيوة" فمضى إلى "بورقيبة" يسأله:

– ألم تقل أن فلان الفلاني ستشنقه في "باب بريقشة".

قال "بورقيبة":

"يخرب عقلك" يا "محمود" هؤلاء هم الذين سيخدموننا اليوم، هؤلاء هم السّفراء والسّاسة والقادة، أمّا أولئك البسطاء الذين ظنّوا أنهم أخرجوا فرنسا وحاربوها بالسّلاح فذهبوا مع ظنّهم وماتوا. عُلّقوا في "صبّاط الظلام" وتحت "شاشية" "عمر" ودُفنوا في "غار الملح". لكنّهم كانوا كأدمغة "قفصة" التي تحدّث إليها أحمد الصغير يمدّون أيديهم ليصفعوا ثم يمسكون لكنّهم لم يصمتوا... حدّثوا أحمد بما كان.

روى له "قدّور" حكاية صغيرة قال: التقيت يوماً أحداً من جماعة الدّيوان، كان "بورقيبة" قد أعطاه أشياء كثيرة، منزلاً من طابقين وجراية تقاعد، التقيته بعد موت "بورقيبة"، تجاذبنا أطراف الحديث. كنت أنا خارجاً من أسفل الأرض من عمق سبع وثلاثين درجة في "غار الملح"، أخلع عنّي السّلاسل التي قيّدتني ثماني

سنوات وكان الآخر خارجاً من منزله ذي الطابقين. التقيته على قبر "بورقيبة" فدعوت بالرّحمة أما هو فقال: الله لا يرحمه لقد تركنا نقاسي.

بهت "قدّور"، لم يتعوّد نكران الجميل وإن لم يفعل معه "بورقيبة" جميلاً، لم يقدر له غير ستّة ملاعق ماء وملعقة من ورق الجزر وتركه حافياً يمشي مقيّداً يلتقط فتات خبز إن عثر عليه... يغالط نفسه ويضع في فمه ما يجد من فتات الخبز فخبزة واحدة لا تكفي، نصفها يؤكل ونصفها الآخر يغطّس في الماء لعلّه يزيد في حجمه...

عامان وثمانية أشهر ظلّ "قدّور" ومن معه يغطّسون الخبز في الماء ويغالطون أنفسهم حتى يتوهّموا الشّبع. لم يشبعوا حتى نقلوا إلى "برج الرّومي"، يومها جلب لهم أحد الحرّاس خفية بعض فضلات الخبز من مساجين آخرين، غمسوها في الماء حتى شعروا بالشّبع... و"قدّور" مازال يدعو له بالرّحمة ويذكر القمّل و"سوسة الفول" يظنّها فلفلا أكحل فيأكلها جوعاً لا حبّاً، والزّبانية يضربونهم بالسّوط مرّة أخرى...

قال أحمد في نفسه ونظر إلى عين "السّاسي بويحي"، العين المفقوءة تحدّق إليه مازال لم يحدّثها ولم تحك له، لكنّ "قدّور" قدّم له عينا أخرى، هو السّوط مرة ثانية...

كان سوط "محمود المرابط" رئيس السّجن وكانت عين "حمّادي قيزة" وطبيب السّجن يسأل ورئيسه يجيب بهدوء وبساطة: "لا جاتو ضربة خاطية".

كم كانت الضّربات خاطئة سأل أحمد نفسه؟ وماذا أخطأت حتى صادفت العين؟ سوط "المرابط" يخطئ و"حمّادي" يفقد عينه ويخطئ سوط "المحجوب" فيفقد "السّاسي" عينه. هكذا كانت الضّربات تترى والعيون تطير من أماكنها وعين "السّاسي" المفقوءة مازالت تحدّق في وجه أحمد الصغير...

الآن نظر إليها أحمد بعد أن تحسّس خدّيه وسال دمعه، نظر إلى عين "السّاسي" وجلس أمامها ورجاها فحدّثته.

كان صوتها متقطّعاً حزيناً كأنّها تحمل في داخلها أسف العالمين جميعاً، مازالت تذكر المحكمة التي نصبت لهم وصوت محامي الدّفاع الذي سخّره "بورقيبة" لهم يسلّمهم إلى المحكمة ويهديهم ويتوعّدهم بعقاب أقسى.

كان أقسى عليهم من محكمة أمن الدّولة، مازال صوته يرنّ في آذانهم:

"أحيط علما هؤلاء الماثلين أمامكم أن الشّعب التّونسي عبّر كلّه وبكلمة واحدة عن سخطه وغضبه ولو أطلق سراحهم لنالوا من الشّعب عقوبة أقسى... كشفت محكمتكم أن تفكير المتّهمين رديء ومنحطّ

المستوى وأن النيابة على كامل الحقّ عندما وصفتهم بالعاجزين عن التّصرّف". هكذا قال المحامون ثم صمتوا فبكى أحمد الصغير.

بكى أحمد الصغير كثيراً ونظر إلى العين المفقوءة... كان قد أهملها إلى حين ونظر حولها وقبلها وبعدها وبعثر ترتيب الغرفة كما تركه الجدّ والآن يعود إليها بعد أن أدرك أشياء كثيرة أو أدرك كلّ شيء أو لعلّه لم يدرك شيئاً...

لم يشكّ فيما أدرك وخيّل إليه أن أشياء أخرى خفيت عنه فحدّث نفسه أنه لم يدرك شيئاً وجال في العين المفقوءة يقرأ ما فيها...

وجد ما كان ينظر إليه قبلها، وجد الكتاب الأبيض يسيل منه الدّمُ و"شاشية" "عمر" و"صبّاط الظلام" والجثث التي رتّب رؤوسها الجدّ في الغرفة وثقب جبّة الشيخ العيادي وأرامل بنزرت وخيل "علاء الدين" ترفس صحن الجامع الأكبر في "القيروان" وأحاديث "غار الملح" ودم الزّعيم "صالح"... وأشياء أخرى.

رأى صاحبها يلتقي رفيقه في الجبل، أبناء "قفصة" الذين ظنّهم "المنجي" يستعملون المكاحل ففتّش في "لسان ابن منظور القفصي" فلم يجد غير أواني الكحل للنساء. وفتّش في عيون أبناء "قفصة" فلم ير كحلاً ولا مكحلة ولا نوماً.. أرهقهم ما شاع من أمر "بورقيبة" في البلاد فسهروا ليلهم يبحثون كيف يريحون النّاس من شرّ فعله.

كانوا يلتقون في دار "الأزهر"، و"الأسود بو يحي" والشّيخ "عبد العزيز العكرمي" و"الهادي القفصي"... التقوا هناك في "قفصة" وساءهم من "بورقيبة" ما فعله فغضبوا وعزموا أن يزيحوه.

كان الشّيخ "عبد العزيز زيتونيا" يكرهه "بورقيبة" ويكره جذوره ويكره زيتونته التي أطعمته من ثمرها حتى أحسّ بكره "بورقيبة" له وشعر بالخطر يتهدّد زيتونته فأجمع أمره وسعى فيه.

كان يتردّد إلى بنزرت، في شارع الجمهورية هناك مكتبة يأوي إليها. يقرأ بعض كتبها ويحدّث صاحبها، صديقه "عبد الحميد"، يتبادلان التّحيّة والحديث ويقرأ كتباً ويذكران "بورقيبة" وفعله ويغضبان ثم ينصرفان حتى فاض في قلوبهما ما جمعهما بجماعة "الأزهر".

ظلّوا يلتقون المرّة والمرّتين والمرّات العديدة وينتقلون بين دار "الأزهر" ودار "الهادي القفصي" وأحياناً دار "السّاسي الأسود"، يلتقون ويتحدّثون كيف يزيحون "بورقيبة"..

يومها اتّفقوا على مقترح "السّاسي" وأجمعوا أن يحضروا مأدبة طعام يدعون فيها "بورقيبة" وبعض أعوانه المخلصين ثم يعزلونه... تكفّل "الحنيني" فانضمّ إلى جماعة "بورقيبة" وقد كان يقابله دون حاجب ولا مشكل ولكنّ "بورقيبة" أغضب الجميع وأغضب "الحنيني" فانضمّ إلى جماعة "الأزهر" وقرّر أن يساعدهم.

التقوا جميعاً لكنّ "عبد الحميد الشّيخ" غاب. كان مريضاً يومها أسهرته الحمّى فغاب عنهم هكذا قال لوكيل الجمهورية "فرحات":

"سامح الله الحمّى فقد أنقذت حياتي، كنت طريح الفراش في سوسة وكلّ زملائي أُعدموا أمامي، لم أشارك ولم أخبر، كلّ الطّاقات الحيّة في الجيش ستشارك وأنا لا أشارك مع محبتي "لبورقيبة" كنا في غضب".

غاب "عبد الحميد" وحضر حارس "بورقيبة" الخاصّ ومكوّن الفوج الأول لحرس الدّرّاجات "قدّور" والجماعة الآخرون لكنهم اختلفوا وتباعدوا.

أراد جماعة الجيش أن يقوموا بالمهمّة وحدهم واحتجّ الآخرون واختلفوا فأجّلوا عزمهم واتفقوا على ذلك...

خرجوا متّفقين على تأجيل عزمهم وكتم سرّهم إلى حين.

لكنّه خاف واضطرب... إنّه العريف "التّوكابري" خاف واضطرب. كان يعمل تحت امرة "عمر البنبلي "فلما أجّلوا الأمر داخله الرعب فأسرع يطلب مقابلة "الأدغم"... حُمل إليه، حدّثه عن كلّ شيء. سمع منه وأشهده على الجماعة ثم بعثه ملحقاً بالسّفارة في "سويسرا".

كشف "التّوكابري" كلّ شيء وبعث إلى "سويسرا". وأمّا "العربي الصامت" فبُعث إلى العذاب... عُذّب حتى صار في غيبوبة وظنّ نفسه واقفا في مشهد قيامة يلقى عذاب الآخرة..

أما الآخرون فقد سبقوه إلى الآخرة... أُعدموا وسبقوه.

مات "الأزهر" و"الهادي" و"الحشاني" و"عبد العزيز"، ماتوا قبل أن يُحقّقوا ما وعدوا به في "قفصة" هناك حيث أعدّوا لتنظيم ثورة.

ماتوا بعد أن كشف "التّوكابري" أمرهم وحُمل إلى "سويسرا" ومضى البقيّة إلى "غار الملح" تحت الأرض ومُنع عنهم الطعام والدّواء حتى لحق بالجماعة الذين سبقوا إلى الآخرة رفيقهم "الصّحبي فرحات"...

ماتوا جميعاً ورتّب الجدّ رؤوسهم في الغرفة وأغلقها وظلّ يتعهّدها حتى سال الدّم من رأسه فرحل ولم يرجع. وظلّ أحمد الصغير وحده يقرأ ويبكي وينظر في الغرفة كلّما نظر اتّسعت رؤيته وزاد عجبه وسالت الأسرار على الجدران.

عشر سنوات أو تزيد قضاها الجماعة تحت الأرض ثم خرجوا صامتين، لم يتكلّموا. وحده الجدّ كان ينظر من ثقب الجبّة واقفاً ينظر إلى "صبّاط الظلام" ويقذف بالجثث والصّور إلى الغرفة فتأتيها إلى مقاعدها كأنّما قدّت منها.

وحده أحمد الصّغير قرأ الكتاب الأبيض الذي احمرّ من كثرة الدّم يسيل منه ونظر في الغرفة فاتّسعت رؤيته وزاد عجبه وانكشف سرّ الجدّ.

همّ أحمد أن يغادر غرفة الجدّ، فقد انكشف له سرّها وظنّ أن عجبه منها قد انتهى وإن كان في نفسه بعض منه. ألقى على

جدرانها نظرة أخيرة، جالت عيناه في زواياها تحت الرّؤوس المكدّسة والجثث التي تتزاحم. لم يرها بدقّة غير أن الرّؤوس عادت مرتّبة كما رتّبها الجدّ.

مرة أخرى يفتكَ منه الجدّ دقّة التّرتيب، ضاع منه التّرتيب فهمّ أن يمدّ مفاتيح الغرفة إلى أبيه فقد صار كلّ شيء معروفاً، لم يبق له سوى الوقت.

وحده الوقت صارم معه ومنفتح لا يدري متى يعود إلى الغرفة لكنّه الآن قرّر أن يغادرها إلى حين...

انفتح الوقت وعاد التّرتيب إلى الغرفة وهمّ أحمد بالخروج وقد هدأت دهشته. أدار ظهره إلى جدران الغرفة التي تسيل عليها الأسرار فانكفأت الأسرار كلّها كأن لم تسل لحظة واحدة، وازورّ عن الجماجم والجثث ذات اليمين فعادت مرتّبة بعدما بعثرتها رؤيته التي اتّسعت حين هجم عليها دون إذن.

خُيّل إليه أن رجليه مازالتا غارقتين في الغرفة لا تقدران على الحركة فأبطأ قليلاً وحاول أن يزحزحهما رويداً رويداً، لكنّ قدميه أسرعتا في الحركة كأنّهما تفرّان من المكان...

تخفّفتا أخيراً من قاع الغرفة وأسرارها وسارتا مع أحمد أو دفعتاه للسّير...

تحرّك أحمد قليلاً، خطوتان ولم يزد، لم يستطع أن يجاوز مكانه. مازالت الغرفة تشدّه إليها أو لعلّ الجدّ فطن إليه فجاء يعاتبه.

كان يسمع صوتاً قادماً إليه لا يدرى مصدره، يُوقف حركته ويبدأ أسئلته... هل عاد الجدّ بعد أن سال الدّم من رأسه فرحل ولم يرجع؟ هل فطن إليه فجاء يعاتبه، أم جاء أبوه بعدما أهمل المفاتيح أو تعمّد نسيانها احتراماً لرغبة الجدّ في حفظ سرّ الغرفة؟

كان شأنه مع جدّه وأبيه وحكاية الغرفة كشأن جماعة "الأزهر" التقوا وخطّطوا وفشلوا ومات بعضهم وقضى الآخرون تحت الأرض فترة طويلة من الزّمن ثم عادوا إلى المدينة، بعضهم صامت وبعضهم يتكلّم خفية وكلّهم يخفي في نفسه شيئاً. وحده كان "عزّالدين الشّريف" يبكي في نفسه، تأثراً كثيراً لموت شيخه "عبد العزيز" وحدّث أصحابه في السّجن وأسرّ لهم:

– عندما أخرج سأقتل "بورقيبة" انتقاماً لإعدام "عبد العزيز".

سمع أصحاب سجنه قوله وأهملوه، كانوا هناك تحت الأرض مقيّدين بالسّلاسل يبحثون كيف يشبعون و"عزّالدين" يحدّثهم عن نيّته في قتل "بورقيبة" وهم فشلوا من قبل وفشل آخرون ولا يدري أحد منهم متى تأكل جرذان السّجن جسده فيخرّ ميّتاً "كالصّحبي" الذي مات هناك ولم يعالج. مات غريباً مريضاً محزوناً كظيماً، كان يدافع من قبل عن عمّال تونس وعن تونس والآن يموت في السّجن. لا

أحد يدافع عنه، وحده يموت و"عزّالدين" يحدّث أصحاب سجنه أنه سينتقم لشيخه "عبد العزيز"...

أهمله أصحابه كما أهمل أبو أحمد مفاتيح غرفة الجدّ لكنّهم أكنّوا له الاحترام ولم يفشوا سرّه كما فعل "التّوكابري".

ظلّ السرّ معه سنوات سجنه تحضره صورة شيخه "عبد العزيز" وجماعة "الأزهر" وكلّ الذين ماتوا. حدّث بعض مقرّبيه حتى كان موعد خروجه من السّجن.

بضع سنوات قضاها خارج السّجن يجمع ويعدّ ويخطّط واختار "قفصة" المدينة التي جاء منها هو وكثير من جماعة "الأزهر"، مدينة شيخه "عبد العزيز"، والمدينة التي ظنّها "المنجي" تستعمل المكاحل. اختارها "عزّالدين" ليبدأ منها انتقامه من "بورقيبة"، لكنّ "بورقيبة" استنجد بالفرنسيس أولئك الذين كانوا هناك في "قفصة" وفي "تونس" وأخرجوهم منها، وعادوا ينصرون "بورقيبة" ليلحق "عزّالدين" بجماعة "الأزهر"... سال الدّمُ من رأسه مثل ما سال الدّمُ من رأس الجدّ...

رأس آخر من رؤوس كثيرة دعاها الجدّ إلى الغرفة، من ثقب جبة الشّيخ العيّادي. كان يقذف بها دون أن يعلم بأمره جماعة "الصّباط". ضاق بهم الصّباط فلم يفطنوا إلى الجدّ يرمي بالصّور والجثث والرّؤوس في الغرفة، وهذا رأس آخر رمى به قبل أن يسيل الدّم من رأسه. ما أوسع ثقب الجبّة، وما أكثر ما فيها من رؤوس...

أدرك أحمد ما الذي شدّه الآن إلى الغرفة في هذه اللّحظة التي همّ أن يغادرها. ثقلت خطوته ونظر فإذا رأس "عزّالدين" يرقبه وينظر إليه. لم يكن في الكتاب الأبيض ورقة بيضاء يسجّل فيها مقدم رأس "عزّالدين"، لكن في الغرفة أماكن كثيرة لرؤوس جاءت ورؤوس لم تأت ورؤوس قد تأتي.

نظر رأس "عزّالدين" إلى أحمد الصّغير من عين واحدة، عينه السّليمة التي لم يمسسها ظلام "الصّباط" وكانت عينه الأخرى تعبة. زاد من تعبها سنيّ النّفق المظلم في سجون بنزرت حيث لا ضوء ولا ليل ولا نهار. متعبة كانت عين "عزّالدين" وزاد من تعبها إقامته تحت الأرض خمسة عشر مترا.

من عينه السليمة نظر إلى الصّغير يهمّ بمغادرة الغرفة فأثقل خطوه وشدّه إليها وأوثقه قليلاً.. مازالت عينُه المتعبة تودّ أن تحدّثه. نظر إليها ورمى ببصره بعيداً فاتّسعت رؤيته وطفقت العينُ المتعبة تحدّثه.

حين نظر إليها جاءته الذّكرى وقد كان يبحث عنها يفتّش في أنحائها كيف لا يعرف هذه العين المتعبة، أسمع عنها أم التقاها؟ لا يدري، لكنّه موقن أنه عرفها قبل اليوم.

حين كنت صغيراً... قالت العينُ المتعبة، كأنّها أدركت أين رحل أحمد بذهنه، حين كنت صغيراً.. أعاد أحمد كلامها ورحل يبحث في طفولته، يومها كان يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، بين طفولة وشباب، يسمع ولا يهتمّ كثيراً. ويهتمّ ولا يفهم أحياناً أخرى، لكنّ

حديث العين المتعبة يومها يعرفه الصّغير والكبير هناك في مدينته "قفصة"، مدينة "عزّالدين" وشيخه "عبد العزيز"وجماعة "الأزهر"...

رحل أحمد إلى طفولته في المدينة... لم يكن ابن مدينة، كان يقطن غير بعيد عنها خمسة كيلومترات أو تزيد قليلاً، أو ربع ساعة في سيّارة الأجرة أو نصف ساعة على قدميه وكثيراً ما كان يفعل ذلك...

نادراً ما زار المدينة في صغره إلا مرفوقاً بأحد إخوته الكبار في عيد الفطر وحين يحتاج إلى صورة فوتوغرافية أو استخراج وثيقة، وقليلاً ما كان يحتاجها. فلم يكن في قريته مرافق إداريّة ولا محلاّت مصورين، ولا مخابز غير واحدة جديدة حديثة العهد، تذكّرها الآن حين ذكر العين المتعبة ورأس "عزّالدين"...

يومها أغلق "عزّالدين" المدينة، قطع عن أسوارها النّقل والخبز وأشياء أخرى، جاء من هناك من ليبيا بجماعته...

جاؤوا بسلاحهم وهجموا على "قفصة" فأغلقوا طرقاتها إلى خارجها وقطع عن الأحواز النّقل والخبز.

كانت المدينة تمدّ الأجواز بالخبز والوثائق وأشياء كثيرة وتنقل التّلاميذ إلى معهد المدينة، ويوم قرر "عزّالدين" أن ينتقم لشيخه "عبدالعزيز" توقّف كل شيء...

لم ينقم أحمد الصغير على "عزّالدين" وجماعته لأنه أوقف عنهم ما أوقف، فتلك ضرورة حرب وقد كفته المخبزة الجديدة في قريتهم مؤونة أيام الحرب.

هكذا تذكر رأس "عزّالدين" والعين المتعبة.. يومها كان يشهد طوابير القرية ترقب الخبز أمام المخبزة الجديدة. مخبزة "العمّ صالح". وترقب أخبار "عزّالدين" يقدم بها الهاربون من الرّصاص الطّائش في المدينة ويكثر التّأويل والتّفسير وأعاجيب الحديث....

يومها سمع أحمد الصغير شيئاً عن "عزّالدين" وأشياء كثيرة عن جماعته وعن "الشّيخ العربي" الذي وعدهم بجمع شباب كثير يساعدون "عزّالدين" على الانتقام لكنّ الشّباب الواعد أخلف الشّيخ وعده ولم يحضروا...

حضر "عزّالدين" و"المرغني" والجماعة وغاب عن "العربي" شباب واعدوه وأخلفوا.

وحدهم ظلّوا في المدينة يجوبونها ويقاتلون الجيش والشّرطة حتى جاء المدد من فرنسا... يومها فقط سمع أحمد الصّغير عن "عزّالدين" والآن يذكره، ينظر إليه ويحدّثه...

سأل أحمد الصغير رأس "عزّالدين" والعين المتعبة:

تنتقم لشيخك وقد خرج غاضباً لنفسه بعدما نقله "بورقيبة" من "المنستير" إلى عين دراهم؟

– غير صحيح

– لم يكن شيخك غير ذلك، زيتوني قديم وآفاقيّ بعيد جاء من المنستير ولم يعد له فيها مكان فبُعث إلى بلاد الثلوج، فلماذا يغضب ويخرج على الدّولة؟

– لم يغضب لنفسه ولكن بينه وبين "بورقيبة" أمور أكبر واخطر.

– وأي خطورة تأتي من زيتونيّ قديم؟

– هي الزيتونة عينها تتحدّث

– زيتونة شيخك كانت منهكة مهترئة، وشيخك وغيره أرادوا أن يشذّبوها قبل "بورقيبة"...

– "بورقيبة" كان يرى أن الجامع الأعظم هو المعهد الذي أقيم منذ أكثر من اثنتي عشرة قرناً بدافع قوي من العزيمة الإسلاميّة ليكون مع جامع "القيروان" في هذه الرّبوع مركزاً من مراكز إشعاع المبادئ الأخلاقيّة والقيم الحضاريّة

– جميل فلماذا يثور شيخك عليه.

– بل خطير يخفي ما لا يظهر.

– وشيخك كان يظهر ما لا يخفي... يغضب لنفسه ويظهر أنه غاضب للزّيتونة.

– شيخي كان من جماعة "صوت الطّالب" وكان يريد أن يصلح الجامع الأعظم لا أن يغلقه، و"بورقيبة" كان متحرّجاً منهم وأحسّ بخطرهم فأغلق الجامع الأعظم وبعث بهم للعمل مؤدّبين ومعلّمين وبعض أساتذة هنا وهناك. كان يراهم شرّاً لابدّ منه وكان يوكل لوزيره "المسعدي" أن يهينهم ويذلّهم فهم لا يعرفون الفرنسية... بينهم أشياء كثيرة ظهرت وخفيت و"بورقيبة" كان يخشاهم،وحده يريد أن يقود البلاد لا أحد يراه قادراً على منافسته وجماعة الزّيتونة

أزعجوه، استعان بهم حين أحتاج إليهم ثم قلب عليهم ظهر المجن، فعل ذلك من قبل بالشّيخ "بن عاشور" فلم يعجزه شيخي وغيره من شيوخ الآفاق... لم يجد ما يفعله لـ"صوت الطّالب" قبل ذلك فبعث بـ"منصور" وجماعة أخرى وكوّنوا نقابة طلاّب غير "صوت الطالب".

بهت أحمد وهو يسمع رأس "عزّالدين" ينساب الحديث منه كأنّه كان يرقب مثل هذه اللّحظة... كان أحمد يرجو حديثاً آخر، مازالت في نفسه أسئلة كثيرة يأمل لو يحدّثه عنها رأس عزّالدين...

المؤلف في سطور:



سمير ساسي: روائي وشاعر تونسي

من مواليد 8 فبراير 1967

- حاصل على الاستاذية في اللغة والآداب العربية، من جامعة منوبة تونس وشهادة الماجستير في الحضارة العربية من جامهة منوبة تونس

- باحث في الجامعة التونسية

- صدرت له رواية "البرزخ" عن المركز المغاربي للنشر والترجمة بلندن ومجموعة شعرية بعنوان "سفر في ذاكرة المدينة"

- صحفي بجريدة الموقف التونسية منذ سنة 2005

- له مقالات منشورة في صحف ومواقع إلكترونية منها مجلة الدوحة الثقافية والجزيرة نت ومجلة أقلام أون لاين ومجلة مغربنا وعالم برس ومجلة حكايات

- أنجز الكثير من الدراسات الجامعية من بينها:

- مفهوم الفطرة عند الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - منشور بمجلة الدوحة

- القضايا اللغوية في علم أصول الفقه من خلال المعتمد لأبي حسين البصري والأحكام لابن حزم، التيار السلفي في الفكر الإسلامي - غير منشور

- له أعمال جاهزة للنشر منها: رواية "يعانقنا النشور"، وكتاب "حضارة الشكر نفي السلطة وتأسيس الحرية"، ومجموعة شعرية تحت عنوان "ديوان كن"

البريد الإلكتروني:

samirsassi@yahoo.fr

تبدأ (خيوط الظلام) بمشهد شديد المأساوية: أطفال مدرسة يجرفهم تيار الوادي الهائج أثناء عودتهم إلى بيوتهم، لم يبق من تلك الزهرات سوى زهرة واحدة، عبد الرؤوف، كان عليها أن تشهد المأساة لتحكيها، لم يكن أهل القرية يطلبون أكثر من جسر على الوادي، ولكن الدولة تأخرت عليهم به بعد أن استغرقت في سياسة الإهمال القاتل تحكم المأساة كل (خيوط الظلام) انطلاقاً من لحظة تأسيس الخيبة تلك، وكل ما عدا ذلك تفصيل للمأساة وتكرار للخيبة، بأشكال أخرى وبحرقة أخرى . ليس المؤلف محايداً هنا، ولا ينقل الأحداث ببرود المؤرخ، وهو ما يعمق الشعور بالمرارة أكثر. هنا الخيبة مباشرة، تعصف بكل صلفها بجيل كامل في بقية الرواية، لا يفعل الشاهد سوى لعق جراحه وجراح قريته - بلاده المكلومة يثأر المؤلف هنا لكل الذين أجبروا على الصمت زمناً طويلاً، ويحاول إعادة تشكيل وعيه بالزمن الوطني، محترزاً مما حقنتنا به الدعاية الرسمية طيلة أزيد من عقود ثلاثة المؤلف نموذج هنا عن فشل تلك الدعاية، فها هو يناقضها وينسفها في مواقع عديدة ويضع كل شيء موضع الشك والتساؤل، لا بل يصوغ مساراً مختلفاً للأحداث يقلب كل شيء رأساً على عقب، وهو يقوم بذلك بكل حرية ويسر، فهو ليس مؤرخاً وإنما مبدع نص أدبي .